نجونا لنشهد

وجوه من غزة تروي قصة البقاء

في زمن الإبادة

مثنى النجار

نجونا لنشهد

وجوه من غزة تروي قصة البقاء في زمن الإبادة

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير 2026 م - 1447 هـ

ردمك 978-614-01-3846-9

جميع الحقوق محفوظة

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

إصدار
الدار العربية للعلوم ناشرون م م ح
مركز الأعمال، مدينة الشارقة للنشر
المنطقة الحرة، الشارقة
الإمارات العربية المتحدة
جوال: 585597200 971+ - داخلي: 0585597200
هاتف: 786233 – 785108 (1-961+) –785107 (21-961+)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التوزيع في المملكة العربية السعودية
شركة الدار العربية للعلوم ناشرون للنشر
السجل التجاري 1010921463

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون

facebook.com/ASPArabic twitter.com/ASPArabic www.aspbooks.com asparabic

تصميم الغلاف: علي القهوجي

إهداء

إلى أرواح الشهداء الصحفيين، الذين كانوا الرفاق في الميدان، والضوء في أكثر اللحظات ظلامًا.

إلى أرواح أقاربي وأصدقائي الذين غيَّبتهم الحرب،
وبقيت ذكراهم تسكن القلب.

إلى زوجتي المضحية الغالية "أم ضياء"، وعائلتها التي كانت لي سندًا في أصعب الأيام،
وإلى أبنائي الذين منحوني سببًا لأواصل على الرغم من الألم.

إلى والدتي، وإلى روح والدي الذي أحسن تربيتي ورفع شأني،
وإلى إخواني وأخواتي.

إلى كلِّ مَن أحبَّني ووقف إلى جانبي، إلى مَن مدَّ لي يد العون وشجَّعني على أن أُكمل الطريق.

إلى الزميلة الصحفية العزيزة إشراق أحمد، التي كان لحضورها أثر كبير في أن ترى هذه التجربة النور.

وإلى كل يدٍ ممدودة بالمحبّة والإيمان بالكلمة.

أُهديكم هذا الكتاب؛ ليكون شاهدًا على رحلةٍ كتبناها بعرق الميدان ودموع الفقد، ولتصل من خلاله المعاني الحقيقية لكلمة "صحفي"...
كلمةٌ تُولد من بين الرماد، وتبقى تنبض بالحياة.

المحتويات

تقديم.....9

الفصل الأول: خزاعة... البلدة التي تجمع بين الوجع والكرامة 13

الفصل الثاني: تحت النار... مهنة على حافة الموت..... 21

الفصل الثالث: البيت الذي سقط... والمهنة التي باتت هدفاً 25

الفصل الرابع: شهادات بقلم أُسرتي..... 29

الفصل الخامس: وجوه الراحلين... حين يصبح الغياب ذاكرةً دائمة..... 43

الفصل السادس: حين تصبح الكلمةُ وجعاً... والمهنةُ رسالةً 49

الفصل السابع: الجسد ينهار... والروح تكتب 57

الفصل الثامن: شهود الصحافة في زمن الإبادة... صفحات مكتوبة بالدم
والعدسة والصوت..... 65

الفصل التاسع: مراسلات تحت النار..... 99

الفصل العاشر: حين صمتت المدن «رفح... آخر الملاذات» 107

الفصل الحادي عشر: ذكريات مصورة.....121

ملحق الصور 123

تقديم

حين احترق الضوء في عينيّ الصحفي

أنا مثنّى سليمان النجار، ابن خزاعة، ابن الأرض التي لم تعرف إلّا أن تنبت وجعًا وصبرًا. في الحادية والأربعين من عمري، أحمل ذاكرةً مثقوبةً بالصور والمواقف والأسماء التي غابت تحت الركام، وأحمل أيضًا حبًّا لمهنةٍ تشبه السير على الحافة بين الحياة والموت.

منذ طفولتي، كنتُ أُمسك بمسجّل صغير أُقلِّد به أصوات المذيعين وأخبار الميدان؛ كنتُ أستمع بشغف إلى صوت عادل الزعنون وسمير خليفة[1]، وأحلم أن أصبح يومًا مثلهما. لم أكن أدري أن هذا الحلم سيقودني إلى حياةٍ مليئة بالخطر، وأن الميكروفون الذي حلمت به سيصبح سلاحي الوحيد في وجه الحرب.

درستُ الصحافة والإعلام في الجامعة الإسلامية بغزَّة، لكنّ الشارع كان فصلي الأول، والميدان هو قاعة دروسي الحقيقية. كنتُ أهرب من المحاضرات لألحق بخبرٍ عاجل أو قصفٍ قريب؛ لذا تأخَّرتُ في التخرُّج، لكنني تخرَّجتُ في مدرسة التجربة قبل الجامعة.

---

(1) مراسلان صحفيان شهيران في غزَّة.

تعلَّمتُ المهنة في زمنٍ كانت فيه الأدوات شحيحة؛ كنت أرسل الأخبار من هاتفٍ أرضيٍّ، وأوثِّق الأحداث بوسائل مضحكة أحيانًا، لكنها كانت كافية لتُبقي الحقيقة حيّة. ومع الوقت، انتقلت من الإذاعة إلى التصوير، ثم الكتابة، فالمونتاج... إلى كل ما يجعل من الصحفي مرآةً للوجع الفلسطيني.

ورثتُ عن أبي الصبر والارتباط بالأرض. أُصيب عام 2007م برصاصةٍ غادرة أثناء عمله في حقله، وقبل أن يُشفى من جراحه، هزمني القدر مرَّة أخرى وأنا أُجهِّزه لصلاة الظهر في رمضان؛ حين فاضت روحه بين يديّ. رحل أبي، وبقيتُ أحمل صوته معي في كل تقرير أرسله من بين الركام.

خلال أكثر من إحدى وعشرين عامًا من العمل الميداني، رأيتُ ما لا يمكن للعين أن تنساه ولا للقلب أن يتحمَّله.

في حرب الإبادة الجماعية الأخيرة، لم يكن بيتي مجرّد جدران سقطت، بل كان أول بيت صحفي يُقصف، وتهاوت ذاكرتي معه. نزحنا من مكانٍ إلى آخر، نركض بأطفالٍ لا يفهمون ماذا يجري.

كانت أقسى اللحظات حين قُصفت عائلة زوجتي عام 2023م؛ ثوانٍ فقط فصلت بين نجاة أسرتي والمجزرة التي ارتقى فيها والد زوجتي وعمّها وزوجته وأبناؤه. ثم جاءت الأخبار تباعًا: أبناء أخوالي، أبناء عمّاتي... أسماء تتساقط كالأوراق اليابسة، ولا يبقى بعدها سوى الصمت.

سبعة أشهر لم أرَ فيها أسرتي، كنت أتنقَّل بين الخطر والظلام، أبحث عن نبض الحياة، وأحاول أن أكون صوت مَن لا صوت له. لكن

هذه التجربة لم تمرّ من دون أن تترك أثرها على جسدي؛ إصابات في الأعصاب والأوتار، ومشاكل صحية هي ضريبة مهنةٍ اخترتُ أن أمارسها بإيمان لا ينكسر.

أكتب هذا الكتاب لا لأنني صحفي يريد أرشفة الحرب، بل لأنني إنسان يريد أن يتصالح مع وجعه.

أكتب لأقول: نحن الذين نجونا، نحمل في داخلنا موتًا مؤجلًا. وأكتب لأطفالي، ليفهموا أن أباهم لم يكن يبحث عن المجد، بل عن الحقيقة، وسط عالمٍ اختار أن يغلق عينيه عن غزَّة.

الفصل الأول

خزاعة... البلدة التي تجمع بين الوجع والكرامة

عن خزاعة أكتب؛ تلك البلدة الصغيرة الرابضة عند الحدود الشرقية لقطاع غزَّة، التي يحمل اسمها في طياته ما يليق بها من خُضرة وهدوء وكرم.

بلدةٌ ريفية تشبه لوحةً زيتية تنبض بالحياة؛ هواؤها عليل، وتربتها خصبة، ومساحاتها الزراعية الواسعة كانت تُعدُّ سلّة غذاء لمدن الجنوب بأكملها.

يعتمد سكانها على ما تجود به أيديهم من زراعة القمح والشعير والحمص والفول والبازلاء والطماطم والكوسا، وعلى تربية المواشي والدواجن والحمام؛ التي تُضفي على المكان رائحة الريف ودفء الحياة البسيطة.

أكثر من ستين بالمئة من سكان خزاعة هم من المهجّرين من قرية سَلَمة[1] في قضاء يافا، الذين حملوا معهم ذكريات الساحل إلى سفوح خزاعة، فزرعوا فيها شجر البرتقال والليمون كأنهم يواصلون نبض

(1) ضمن 531 قرية دمَّرها الاحتلال وطهَّرها عرقيًّا عام 1948.

الأرض التي اقتُلعوا منها. ومنذ عام 1967م، حين شُيِّد السلك الشائك على حدودها، قُضم جزءٌ من أراضيها الخصبة، وضاق الحلم أكثر، لكنّ الحياة بقيت تدبُّ في كل زاوية منها على الرغم من القيد.

كانت خزاعة، قبل الحروب، مقصدًا للزائرين؛ يأتيها الناس من المدن للاستمتاع بجلساتها الريفية البسيطة، يستظلّون تحت أشجار الزيتون واللوز، ويشربون القهوة على نسمات هوائها الصافية. كانت بلدة الطيبة والكرم، تُكرم ضيوفها كما لو كانوا أبناءها.

لكنّ تلك البلدة التي كانت تنبض بالحياة، أصبحت اليوم شاهدة على وجع كبير؛ ففي الحروب المتكرّرة، كانت خزاعة دائمًا في مرمى النيران، تتعرَّض للقصف والتدمير والنزوح، غير أن ما جرى لها في حرب الإبادة الجماعية الأخيرة فاق كل تصوُّر؛ فقد سُحقت منازلها ومزارعها تحت آلة الحرب الإسرائيلية، ودُمِّرت بالكامل.

أكثر من أربعة آلاف منزل ومنشأة بحسب تقديرات البلدية؛ لم يبقَ حجرٌ على حجر، ولم يُسمح لأهلها بالعودة، فصاروا يعيشون حياة النزوح في خيام غرب مدينة خان يونس، بانتظار أملٍ بعيد في العودة إلى بيوتهم التي تحوَّلت إلى رماد.

قُتل المئات من أبناء خزاعة في تلك الحرب، من العائلات التي حملت تاريخها جيلًا بعد جيل، فغدت البلدة مقبرة للذكريات، وأيقونة للصبر. وعلى الرغم من الألم، لا يزال في أهلها من الإصرار ما يُعيد رسم الحياة من جديد؛ فخزاعة ليست مجرّد بقعة على الخريطة، بل رمزٌ للكرامة.

صباح السابع من أكتوبر

في صباح السابع من أكتوبر لعام 2023م، استيقظنا على أصوات غير مألوفة؛ مريعة وقوية، ليست ككل مرة. ولأنني أسكن في بلدة خزاعة الحدودية، ومنزلي لا يبعد سوى كيلومتر واحد عن السياج الفاصل مع المستوطنات الإسرائيلية في غلاف غزة، ركضت مسرعًا إلى سطح المنزل لأرى ما يحدث.

كانت الانفجارات تتوالى حولنا، ولم نتمكن من فهم حقيقة ما يجري طوال أربعين دقيقة، حتى بدأت الصورة تتكشف أمامنا. تبيَّن لاحقًا أن المقاومين قد اخترقوا الحدود، وأن حدثًا كبيرًا يقع؛ شيئًا لم نتخيَّله قط.

كعادتي، بدأت بالتغطية المباشرة عبر الإذاعة المحلية التي أعمل معها منذ خمسة عشر عامًا، أنقل أصوات الصواريخ والانفجارات، وأصف الأحداث من قلب العاصفة.

مع مرور الساعات، بدأ الوضع يزداد صعوبة، وتحديدًا بعد ظهر ذلك اليوم حين نفَّذ الطيرانُ أولى غاراته الجوية.

كانت البداية باستهداف سيارة إسعاف كان يستقلُّها الشهيد المسعف مروان أبو ريدة؛ وقد شاهدتُ المشهد بعيني. بعدها تتابعت الغارات قرب السياج، وانتشر الخوف في كل مكان، فبدأ بعض الناس بالنزوح من البلدة إلى مناطق أبعد طلبًا للأمان.

توالت الغارات، واستهدفت قوات الاحتلال منازل أقاربي في البلدة ذاتها، فارتقى أكثر من عشرة شهداء من أفراد أسرة الحاج أبو زكي

النجار. عندها بدأنا ندرك حجم ما يجري، وعلمنا أن المقاومة قد نفَّذت عملية اقتحام واسعة، وأن ما نعيشه ليس مجرّد جولة تصعيد عابرة، بل بداية فصل مأساوي.

كانت المواقف التي واجهتها أثناء التغطية صادمةً للغاية؛ فأحد مصادري، حسين أبو دقة، لم يَعُد يرد على اتصالاتي. وعندما توجَّهتُ إلى مكان القصف في عبسان الكبيرة بخان يونس جنوبي قطاع غزَّة، تأكَّد لي من تجمهر الناس أنه بات في عداد الشهداء العالقين تحت ركام منزله مع أفراد من أسرته. تسبَّبت هذه المجزرة بارتقاء ما يزيد على سبعة عشر شهيدًا، ولم تنجُ منها إلا الطفلة تالا حسين أبو دقة.

صور القصف وصورة الطفلة الناجية تالا

مع اشتداد الاستهدافات، تجمعنا نحن الصحفيين في مستشفى ناصر بخان يونس. كنتُ أتنقَّل بين المواقع وألتقي بزملائي، ومن بينهم

الشهيد محمد أبو حطب، مراسل تلفزيون فلسطين، الذي ارتقى لاحقًا، وغيره الكثير من الرفاق.

لم نكن ندري كيف نرتِّب شؤوننا الشخصية وسط هذا السيل من الأحداث؛ كنتُ أنا في وادٍ وعائلتي في وادٍ آخر، حيث لجأت زوجتي وأبنائي إلى بيت أهلها. كانت لحظات مهولة، مشحونة بالخوف والذهول مع توالي الغارات وتكدّس الشهداء من حولنا.

وفي لحظةٍ عابرة، كنتُ أحمل جوعي على كتفي، أبحث عن لقمةٍ تسند جسدي المنهك، وقبل أن أتناول طعامي، بدأ هاتفي يرنّ بلا توقُّف.

أصوات الأصدقاء والأقارب تتلاحق في ذعر: "هل أنت بخير؟ يقولون إنك استشهدت!".

تجمَّدت الكلمات في حلقي؛ علمتُ حينها أن منصّات إسرائيلية قد نشرت اسمي ضمن حملة تحريض، مدعيةً أنني قُتلت.

شعرتُ بالخوف يلتفُّ حولي كحبلٍ خفيٍّ، حتى زملائي باتوا ينظرون إليّ بريبةٍ وصمتٍ حذر.

تركتُ التغطية لأيامٍ أستجمع فيها شتات نفسي، لكنّ الخوف لم يرحل؛ ظلَّ يسكن ظلالي. كانت الحرب كابوسًا بلا نهاية، كأنها تستنشق أرواح الناس جميعًا، ولم يكن أمامنا خيارٌ سوى الاستمرار على الرغم من ثقل الفَقْد.

بعد أشهرٍ عدتُ أتابع العمل مع الزملاء؛ كنا نسأل بعضنا: مَن بقي في قيد الحياة، ومَن رحل؟ كنا نُحصي الشهداء لا بالأرقام بل بالأسماء والوجوه؛ أصدقاءنا وأهلنا وجيراننا.

لقد تحوّلت الذاكرة إلى دفترٍ ممتلئ بالوجع. وحين وصلنا خبر استشهاد عائلة الزميل وائل الدحدوح، ساد الصمت في قلوبنا جميعًا؛ لم يَعُد أحدٌ يشعر بالأمان، حتى الكلمة صارت تُكتب بدمٍ ودموع.

ومع تصاعد القصف والحصار، كنا نحاول بشتَّى الطرق الحصول على المعلومة؛ أحيانًا كنتُ ألعب دور الوسيط بين الأهالي والهلال الأحمر والطواقم الميدانية، فقط لإنقاذ جريح أو انتشال شهيد، أو حتى طمأنة غائبٍ عن أهله.

ثم جاء اليوم الذي انكسر فيه كل شيء داخلي؛ كان وائل الدحدوح وسامر أبو دقة[1] في طريقهما لتغطية قصفٍ قرب مدرسة فرحانة بخان يونس، وفجأة دوَّى الانفجار؛ تجمّد الزمن، وصارت الاتصالات تصرخ في الفراغ.

لحظاتٌ طويلة من الترقُّب والخوف، حتى جاء الخبر: سامر أُصيب؛ ثم بعدها بقليل: سامر استُشهد. سقط الخبر عليّ كصاعقة؛ لم أنسَ ضحكته، ولا سهرات الخميس معه، ولا صداقتنا التي كانت تشبه الأخوّة.

وما لبثتُ أن تلقيتُ خبرًا آخر، كان أشدّ وجعًا: استشهاد خالي أشرف النجار. خرج فقط ليملأ جالون مياهٍ لأسرته النازحة قرب مستشفى ناصر، فاستهدفته الطائرات بسبع رصاصاتٍ غادرة. وصلني فيديو من أحد النازحين يوثّق لحظة سقوطه في الشارع عاجزًا عن الحركة، والناس من حوله لا يستطيعون الوصول إليه؛ مشهدٌ لن أنساه ما حييت.

(1) سامر أبو دقّة مصوِّر قناة الجزيرة، استُشهد في 15/ 12/ 2023.

توالت بعدها الأخبار كالسكاكين؛ اعتقال أقاربي، إصابة آخرين، وارتقاء العشرات من عائلة النجار. أكثر من مئة وخمسين شهيدًا من أبناء العائلة وحدها، ومئات الجرحى، في مشهدٍ يعجز القلب عن تحمّله.

الحرب لم تكن طائراتٍ وصواريخ فحسب، بل كانت امتحانًا لإنسانيتنا، وصبرنا، وذاكرتنا المثقلة بالوجع. نحتاج إلى مجلداتٍ لنحكي كل ما جرى، ومع ذلك ستظلُّ عاجزة عن وصف ما سكن القلوب من ألم. لقد صرنا نحن الصحفيين نكتب عن الموت بينما نحيا بين ظلّه وصوته؛ نحمل الكاميرا بيدٍ، ونمسح دموعنا بالأخرى.

الفصل الثاني

تحت النار...
مهنة على حافة الموت

في غزَّة، لا يحتاج الصحفي إلى بطاقة تعريف ليُعرف أنه صحفي؛ يكفي أن يحمل في عينيه قلق الميدان، وفي صوته نبرة تعبٍ لا تشبه سواها.

كنتُ واحدًا من أولئك الذين اختاروا الوقوف على خط النار، لا لأننا نحبُّ الخطر، بل لأننا نكره الصمت أكثر. منذ بداياتي في الإذاعة، أدركتُ أن هذه المهنة لا تترك لصاحبها ترف الخوف؛ فكنتُ أخرج من بيتي وأنا أودّع زوجتي وأطفالي كأنها المرَّة الأخيرة.

أقول لهم: "سأعود بعد التغطية".

لكنني كنتُ أرى في عيونهم سؤالًا لا يُقال: "هل ستعود فعلًا؟".

في كل مرَّة أصلُ فيها إلى منطقة قصف، كان صدى الانفجارات يسبقني؛ التراب يتطاير، الدخان يخنق الرؤية، وأصوات الإسعاف تختلط بنداءات الناس.

كنتُ أرفع الهاتف، أصف المشهد، وأقول: "هنا خزاعة... هنا خان يونس... هنا تسقط الصواريخ على البيوت"، لكنّ داخلي كان يرتجف. فالصحفي لا يُظهر خوفه، لكنه يحمله كظلِّه، لا يفارقه أبدًا.

أتذكَّر في الانتفاضة الثانية[1]، كانت التغطية مغامرة لا تُشبه شيئًا؛ القصف قريب، والرصاص عابر، والسماء لا تعرف صديقًا من عدو.

في إحدى المرّات، وبينما كنتُ أُغطِّي الأحداث شرق خان يونس، اخترقت رصاصةٌ الهواء بجانبي وسقط زميلٌ لي أرضًا؛ تجمَّدتُ في مكاني لثوانٍ، ثم عدتُ أصرخُ عبر الإذاعة أصفُ المشهد، بينما كانت يداي ترتجفان. حينها أدركتُ أن الكاميرا قد تكون أثقل من السلاح، وأن الميكروفون لا يقلُّ خطرًا عن البندقية.

مرَّت بي إصابات كثيرة، بعضها ترك أثره في جسدي، وبعضها في روحي؛ ففي إحدى المرات سقطتُ أرضًا من شدَّة ضغط الانفجار، وأحسستُ أن قدميّ لا تطاوعاني. منذ تلك اللحظة بدأت معاناتي مع الأعصاب والأوتار؛ إصاباتٌ تُذكِّرني كل يوم أنني دفعتُ ثمن الكلمة من عظامي. كنتُ أتلقَّى العلاج وأنا أواصل التغطية، أجرُّ جسدي إلى الميدان كأنه واجبٌ مقدّس.

لكنّ الحرب الأخيرة لم تكن كسابقاتها؛ كانت حربًا على الإنسان، على الصحفي، وعلى الحقيقة ذاتها.

كان بيتي أول بيتٍ صحفيٍّ يُقصف؛ لم يكن لدينا وقتٌ للحزن، بل كان الوقت للهرب فقط. نزحنا من خزاعة إلى خان يونس، ومنها إلى رفح، ثم إلى المجهول.

في كل مرَّة، كنا نحمل ما تبقَّى من حياتنا في "كيس نايلون"، ونبحث عن مكانٍ لا يعرفنا الموت فيه بعد.

---

(1) انتفاضة الأقصى اندلعت عام 2000م واستمرَّت حتى 2005م.

وفي منتصف تلك الرحلة، جاءني الخبر الذي كسرني: عائلة زوجتي قُصفت.

ثوانٍ معدودة فصلت بينهم وبين الموت؛ ارتقى والد زوجتي، وعمّها، وزوجته، وأبناؤه. أمسكتُ بهاتفي أستمع إلى صرخات الناجين، ولم أجد صوتي؛ كنتُ صحفيًّا يُفترض به أن ينقل الحدث، لكنّ الحدث هذه المرَّة كان في قلبي. ولم ينتهِ الوجع عند هذا الحدّ.

توالت الأخبار: أخوالي، أبناء عمّاتي... أبناء العم... عائلة "أبو نافذ"؛ خمسة وعشرون شهيدًا، أسماءٌ أعرفها واحدًا واحدًا، تذوب في قوائم الشهداء كأنها حروفٌ تتساقط من الذاكرة. كانت مهنية الصحفي تُحارب إنسانيتي في كل بثٍّ مباشر، وكل تقرير.

سبعة أشهر لم أرَ فيها أسرتي؛ كنتُ أعيش بين الخطر والظلام، أتنقَّل من موقعٍ إلى آخر. كنتُ أسمع اسم غزَّة يتكرَّر في كل نشرات

العالم، لكنني كنتُ أعلم أن العالم لا يسمع صوتها حقًّا؛ كأننا نصرخ في الفراغ. وفي كل مرَّة كنتُ أرى زميلًا يسقط، كنتُ أُعيد التفكير في معنى البقاء: هل نحن أحياءٌ فعلًا، أم أننا فقط نؤجّل موعد الرحيل؟

في تلك اللحظات، تعلَّمتُ أن الصحفي الفلسطيني في غزَّة لا يكتب التقارير فقط، بل يكتب وصيته مع كل خروجٍ للميدان.

الفصل الثالث

البيت الذي سقط...
والمهنة التي باتت هدفاً

كان بيتنا في خزاعة أكثر من مجرّد جدران؛ كان وطنًا صغيرًا أعيش بين أنفاسه، بنيته طوبةً طوبةً بعرقٍ وجهدٍ منقطع النظير. فيه كانت الخطوات الأولى لأطفالي، وضحكاتنا التي كانت تملأ المكان مساءً.

كنتُ أعود من الميدان مثقلًا بالتقارير والصور، لكنّ دفء البيت كان ينسيني ضجيج الحرب. كان ذلك البيت "مساحتي الآمنة"، المكان الوحيد الذي أخلع فيه خوفي، وأتنفَّس كإنسانٍ لا كصحفي؛ لكن في غزَّة، لا شيء آمن، فحتى البيوت التي نحتمي بها تصبح في لحظةٍ هدفًا.

في صباحٍ رماديٍّ من الحرب الأخيرة، استيقظنا على أصوات الطائرات تحوم فوق خزاعة كأنها تبحث عن فريسة؛ لم أكن أتخيَّل أن تلك الطائرات تحمل عنواني، وفي لحظة خاطفة من التغطيات الصحفية وقع المصاب.

حتى تلك النظرة الأخيرة إلى البيت الذي كان، لم نتمكَّن منها إلا خلال الهدنة الأولى في شهر نوفمبر لعام 2023م. حينها أصبح كل شيء

مجهولًا؛ كنا أحياءً، لكن كل شيء آخر قد مات. في ذلك اليوم، صار بيتي أول بيتٍ لصحفيٍّ يُقصف في هذه الحرب؛ الصحفيُّ بداخلي أراد أن يوثِّق، لكنّ الإنسان فيَّ كان مشلولًا أمام حجم الفَقد.

كيف أوثِّق موت الذكريات؟

خرجنا حفاةَ الخوف نبحث عن مأوى؛ نزحنا من مكانٍ إلى آخر؛ من خان يونس إلى رفح. وكلّما ظننا أننا وصلنا إلى برِّ الأمان، لحقت بنا الحرب من جديد، ولم يَعُد هناك فرقٌ بين الصحفي الذي يروي الحكاية، وبين مَن أصبح هو الحكاية.

في تلك الأيام، لم يكن الخطر يكمن في القصف العشوائي فحسب، بل في الاستهداف المباشر للصحفيين؛ صارت الكاميرا تُخيف الاحتلال أكثر من البندقية، وأسماء الزملاء بدأت تتساقط واحدًا تلو الآخر، كأنّ الموت يتتبعنا بالاسم والصورة.

ودَّعتُ زملاءً كانوا أقرب من الإخوة: حسن أصليح الذي طالما ضحكنا معه على الرغم من الخوف، وسامر أبو دقة الذي كان يصنع من

الخطر حكاية إنسانية، ومريم أبو دقة التي كانت تُقاتل بالصورة على الرغم من كل التعب، وإبراهيم محارب ومحمد أبو دقة اللذين لم يغادرا خط النار يومًا.

ما زلتُ أذكر وجوههم جيدًا، لكنهم رحلوا وبقيت الكاميرات يتيمةً بلا أصحابها. ثم توالت الأخبار المؤلمة عن زملائي في الإذاعة: الشهيد خميس سالم الذي ارتقى خلال الحرب، واعتقال الزميل مؤمن الحلبي، واختفاء أثر الزميل نضال الوحيدي، وغيرهم ممَّن صاروا عناوين غيابٍ موجعة.

لم يكن القصف وحده ما يُخيف، بل التهديد والملاحقات التي جعلت أسماءنا تُتداول في قوائم؛ كأنّ الكلمة أصبحت جريمة. كنا نعمل بلا صوتٍ يحمي الصحفي الفلسطيني، وكل ما نملكه هو إيماننا بأن الحقيقة تستحق المخاطرة، حتى إن كانت النهاية في سطرٍ صغير: "الصحفي فلان استُشهد أثناء تغطيته".

كنتُ أستيقظ كل يومٍ على شعورٍ غريب، مزيجٍ من الفخر والخوف؛ الفخر لأننا ما زلنا نكتب على الرغم من الدمار، والخوف لأننا نعرف أن كل تقرير قد يكون الأخير.

أما أنا، فقد خرجتُ بجسدٍ مثقلٍ بالإصابات، وبقلبٍ لم يَعُد يعرف أين يبدأ الحزن وأين ينتهي. ومن تحت الركام، بدأت فكرة هذا الكتاب تولد؛ لا رغبةً في الكتابة فحسب، بل واجب تجاه الذين رحلوا ولم يجدوا مَن يروي حكايتهم.

الفصل الرابع

شهادات بقلم أُسرتي

وفي معرض تلخيصي لجانب من تجاربي، أردتُ أن أضع بين أيديكم ما دوَّنته زوجتي، وشهادات أطفالي؛ كونهم شهودًا عيان على ما تعرضنا له من جرائم وظلم جائر.

ملخص رواية زوجتي أم ضياء

يوم السبت، مع البدايات الأولى لإعلان الحرب، خرج زوجي لتغطية الأحداث وبقيتُ وحدي في المنزل. كنتُ مترددّة في المغادرة، على الرغم من أن الجميع بدأوا بالنزوح من المنطقة؛ ولم يبقَ إلا القليل ممَّن نصحوني بضرورة إخلاء أطفالي الخمسة، مؤكّدين أنّ هذه الحرب تختلف عن سابقاتها وأنها ستكون ضارية. خرجتُ أخيرًا، وقلتُ لأطفالي: خذوا معكم بعض الملابس، سنعود قريبًا.

لجأتُ إلى بيت أهلي، وهناك كنا نرقب الأخبار ونتبادل المخاوف من اتساع رقعة الحرب. في تلك الليلة، فُجعتُ بخبر استشهاد زوجي، لم أصدِّق واتصلتُ به فورًا، فأجابني وبشّرني أنه بخير والحمد لله.

وفي اليوم الثالث، وردني نبأ قصف منزلي؛ اجتاحني شعور بالانكسار، فقد كان الأمل بالعودة يراودني دومًا. أما اليوم الخامس – وكان يوم أربعاء – فقد طلب مني أبي مغادرة منزلهم قائلًا: "يساورني إحساس بالخطر، يجب أن تخرجوا الآن".

عارضتُه بشدَّة قائلة: "لا أريد، سنموت معًا، أنا راضية بقضاء الله".

لكنّه رفض وأصرَّ قائلًا: "إن كنتِ طلبتِ الشهادة، فإنّ لأطفالك حقًّا في الحياة".

كانت لحظات معدودة تلك التي فصلتنا عن موت محقّق؛ إذ قصف الاحتلال المنزل. وسط الركام والدخان والنيران المشتعلة، ابتعدنا عن المكان والقلوب معلَّقة بوالدي. وبعد ساعات، عدنا للاطمئنان عليه، فالتقيتُ بابن عمِّي الذي قال لي بذهول: "لقد ظننا أنكم في المنزل وحسبناكم من الشهداء".

وفي صباح يوم الخميس، الثاني عشر من أكتوبر 2023م، تمكنوا من انتشال والدي من تحت الركام؛ نُقل إلى المستشفى على عجالة، وهناك ودعناه وداعًا سريعًا فرضته الأوضاع الأمنية المتدهورة.

وفي يوم السبت، الرابع عشر من أكتوبر، هزَّ المنطقة صوت قصف عنيف وشديد القرب. تساءلتُ والذعر يتملَّكني: أين وقع؟

هرعتُ نحو مصدر الصوت، فكان الناس يفرون من الطريق المؤدِّي إلى موقع القصف، والدخان الأسود يحجب الرؤية ويملأ المكان. ومن بين صرخات المارّة، علمتُ بالفاجعة: لقد قصفوا منزل عمِّي (أبو أسامة)، وهو وعائلته بداخله.

لـم أصـدِّق الخـبر، فهرعـتُ إلـى هنـاك، وإذا بالبيـت قـد اسـتحال ركامًا. كانت سيارات الإسعاف وفِرق الإطفاء في المكان، والجرافات تعمـل جاهـدة علـى إزالـة الأنقـاض لانتشـال مَـن بالـداخل. أخرجـوا المصابين، ثم جثمان زوجة عمِّي وابنتها ميرام، بينما لـم يتمكنـوا حينها من إخراج الباقين. ودعنا جثمانيهما بقلوب مفطورة، وتـمَّ دفنهمـا. وفي اليوم التالي، تمكنـوا مـن انتشـال عمِّـي وابنـه أسـامة وابنتـه ديمـا؛ ارتقـوا جميعًا شهداء، رحمهم الله.

يومًا بعد يوم، كانت وتيرة الحرب تتصاعد، وبسبب عمـل زوجي الصحفي، أصبح وضعنا يزداد خطورة؛ فقد بدأ الاحتلال باستهداف عائلات الصحفيين بشكل مباشر. كان لزامًا علينا أن نغادر المكان الـذي أقمنـا فيـه أنـا وأطفـالي، حرصًـا علـى سـلامة أصـحاب البيـت الـذين استقبلونا بكرَم.

ضاقت بنا السُّبل ولم نجد مأوى، فبقينا يومين ننام على درجات مستشفى ناصر، حتى اشترى زوجي خيمة قمنا بنصبها لتكـون ملاذنـا. هناك، ازدادت المعاناة؛ فلا ماء ولا طعام يكفي، والطهي أضحى غاية في الصعوبة في ظلِّ انعدام الإمكانيات والغلاء الفاحش، حتى بات توفير لقمة العيش لأطفالي همًّا يثقل كاهلي كل يوم.

مَن كان يمرض منهم لم نجد له علاجًا، وهو ما حدث مع طفلي الصغير بهاء الدين، الذي تعرَّض لوعكة صحية بسبب سوء التغذية والمرض، حتى هزل جسده ووصل وزنه إلى 6 كيلوجرامات.

كانت أيامًا صعبة، والأصعب منها يوم أن فُجعنا بخبر استشهاد ابن

أختي علي رحمه الله، ثم توالى الفَقْد باستشهاد عمّتي وابن خالتي وزوج خالتي؛ ففي كل يوم كنا نترقَّب خبر استشهاد أحد أقاربنا.

وفي يوم من تلك الأيام القاسية، أُبلغنا بأن المكان أصبح خطرًا ويجب النزوح. كان أصعب شعور هو المضيّ نحو المجهول في ظلِّ الصعوبات التي واجهتنا، من تكلفة النقل الباهظة إلى الحيرة في اختيار الوجهة.

أخذنا نبحث عن ملاذ، وبعد يومين نصبنا خيمتنا مرة أخرى، لتزداد الأمور تعقيدًا ويزداد شعورنا بالعجز. وفي الليل، كانت الدموع تنهمر لقلة حيلتنا وعدم قدرتنا على توفير الأمان والغذاء والماء لأطفالي الجياع.

كما كان التواصل مع زوجي صعبًا للغاية؛ إذ إن وضع الصحفيين يزداد خطورة، وكنا نسمع كثيرًا عن استهداف الصحفيين وقصفهم مع عوائلهم.

لازمني شعور الخوف باستمرار؛ فمع كل دويّ صاروخ، كنتُ أعتقد أنه قادم نحونا ليقتلع حياتنا، فأهرع للدعاء إلى الله أن يحفظنا. إن مرارة الفَقْد لا تُوصف، وقد سيطر عليَّ الرعب من فقدان أطفالي، فكنتُ أبكي حرقةً من أن أُفجع بأحدهم.

وفي يوم زاد من قسوة أيامنا، أُصيب ابني الكبير ضياء الحق بمرض الكبد الوبائي. كان الأمر غاية في الصعوبة؛ إذ كان يحتاج إلى غذاء خاص ومياه نظيفة، وهي أبسط الحقوق التي استعصى علينا توفيرها. اصفرَّ جسد ابني تمامًا وغامت عيناه بالصُّفرة، وكان الألم ينهش جسده الذي يزداد نحولًا يومًا بعد يوم، بينما أقف أنا مكبلةً بالعجز، فلا علاج

متاح بسبب إغلاق المعابر وقلّة الإمكانيات؛ لذا استغرق شفاؤه وقتًا طويلًا ومريرًا.

وتسرد أم ضياء موقفًا محفورًا في ذاكرتها قائلة: رأيت في المنام أني أبحث عن ابن أختي نداء، الشاب نضال، وبعد بحث طويل وجدناه، ثم أبصرت ابنها الآخر (علي) ملقى على الأرض، كان وجهه شاحبًا يميل إلى الصُّفرة، وحبات العرق تلمع على جبينه. وعندما سألته عن حاله، طمأنني بأنه بخير، وأوصى أخاه الذي يسنده ألّا يخبرني بحقيقة ما جرى، مكتفيًا بالقول إن قدمه مصابة فقط.

ظلَّ هذا الحلم يطاردني ويملأ قلبي بالرعب؛ فكنتُ دائمة السؤال لأختي عن حال ابنها، أحاول أن أطمئن نفسي وأطرد هواجسي، متمنيةً من الله أن يكون بخير ويكذّب حلمي. لكن، بعد أقلّ من أسبوع، وقع ما كنتُ أخشاه؛ إذ وصلنا خبر استشهاده رحمه الله، ولم يكد الجرح يندمل حتى استشهد أخوه نضال بعده بفترة وجيزة.

شهادة ابنتي ناردين

أمّا ابنتي الكبرى ناردين، ذاتُ الخمسة عشر عامًا، فقد كتبت هي الأخرى عن كلّ ما حدث معها، وأضعه هنا كجزء من حياة أسرتي وتوثيقًا لمعاناتنا:

السابع من أكتوبر؛ يومٌ لا يُمحى من الذاكرة، يومٌ اشتعلت فيه غزَّة وبدأت الحكاية... استيقظنا فيه على دويّ الانفجارات وتساقط القنابل، وعلى وجعٍ لم تعرفه القلوب من قبل.

كنت أشعر بالطمأنينة في البداية، لكن مع مرور الوقت غادرنا أبي إلى عمله، وهنا بدأت اللحظة التي أكرهها في كل حرب. كان حلمي الوحيد دائمًا أن يبقى أبي معنا، وأن نكون أسرةً واحدةً تواجه الصعاب معًا، لكن طبيعة عمل والدي كان لها رأيٌ آخر.

كنا نظنُّ أن هذه الحرب كسابقتها؛ لن نغادر منزلنا وسنبقى فيه حتى تنتهي، كنا نقول: "يوم وراح تخلص"، لكنّ المفاجأة الصادمة كانت في اليوم الثالث، حين تلقينا خبر قصف بيتنا... البيت الذي احتضن طفولتنا وكبرنا بين جدرانه.

حينها، انتشرت شائعاتٌ بأن والدي قد استشهد في البيت، وهو الخبر الذي لطالما خفتُ سماعه، ودعوتُ الله ألّا يكون حقيقيًّا. والحمد لله، كانت مجرّد شائعات، لكن من بعدها تملَّكني الخوف الشديد من الفَقْد.

عشنا أيامًا قاسية، شربنا ماءً ملوّثًا، وافتقدنا الطعام، لكنّ أمّي كانت دائمًا تبعث فينا الأمل، وتحاول إسعادنا بابتسامةٍ تخفي وراءها كل التعب والمعاناة.

كان أخي بهاء الدين لا يزال رضيعًا لم يكمل شهره الخامس، وقد عاش أيامًا مريرة؛ كان يرفض فيها الحليب والطعام، ويبكي بكاءً لا ينقطع. وفي صباحٍ كنا نرجو أن يكون مشرقًا، اتَّفقت أمّي وخالاتي على خَبزِ الخبز لنا، لكن بينما كانت خالتي تخبز، وصلها خبرٌ كالصاعقة: خبر استشهاد ابنها علي.

هرع الجميع لتفقّد الأمر والتأكّد من صحة الخبر، ولم يبقَ في المكان سوانا نحن الأطفال؛ فكان علينا أن نكمل الخَبز على الرغم من أننا لا نُتقن

ذلك جيدًا. حاولنا توزيع المهام بيننا: فريقٌ يخبز ويساعد، وفريقٌ يجلس بجانب الأطفال الصغار ليدفع عنهم الخوف. كنا نتصنَّع القوة ونحاول أن نبدو متماسكين، على الرغم من أن الرعب كان يسكن أعماقنا جميعًا.

وبعد أن انتهينا، جلسنا ننتظر عودة الكبار، وعندما جاؤوا كان الجميع يبكي بحرقة. كنا ننظر إليهم والدموع تترقرق في أعيننا؛ لم نستوعب هول ما يجري، لكننا أدركنا في تلك اللحظة أن خطبًا كبيرًا قد حلَّ بنا.

وبعد مرور مدّةٍ على وقع تلك الأخبار المُحزِنة، رَمى الاحتلال مناشير يأمر فيها الناس بالإخلاء؛ فسادت حالةٌ عارمة من الخوف والارتباك. بدأنا جميعًا نُغادر المنطقة، نحمل ما استطعنا حمله من أشياء وذكريات ثقيلة.

توجّهنا نحو مدينة رفح، وهناك بدأت مرحلةٌ جديدة من المعاناة؛ حيث واجهنا صعوباتٍ لم تخطر لنا على بال، كأنّنا ننتقل من وجعٍ إلى آخر في رحلة لا راحة فيها ولا نهاية.

شهادة ابني ضياء الحق

نجلي الأكبر ضياء الحق، كان يبلغ من العمر حينها خمسة عشر عامًا، ومن حقّه كأيّ طفل أن يمارس اللعب ويستمتع بكل ما هو جميل، لكنه اليوم يروي بعض المواقف الصادمة التي عاشها خلال الحرب:

لم أنسَ تلك اللحظة أبدًا؛ كنتُ أمشي في ممرّ مستشفى ناصر بمدينة خان يونس، أُحاول إقناع نفسي بأنني اعتدتُ المشهد، لكنني فجأة مررتُ بالقرب من مغسلة الشهداء.

هناك، رأيتُ مشهدًا لم يفارق مخيّلتي حتى اليوم؛ رأيتُ شهيدًا محمولًا نحو الكفن، وكان جسده أشلاءً ممزّقة. أصابتني الدهشة كصاعقة، وسرى الخوف في عروقي حتى تجمَّدت.

بقيت عيناي شاخصتَيْن نحو ذلك المنظر، وارتجف قلبي كما لم يرتجف من قبل. بقيت لثلاثة أو أربعة أيام لا أعرف للنوم سبيلًا؛ فكلما أغمضت عينيّ تمثّل لي ذلك المشهد، كأنّ الشهيد لا يزال يمرُّ من أمامي بخطواته الأخيرة.

مرَّت سنتان، وما زال جسده الممزّق يزور ذاكرتي من دون استئذان، وما زال الخوف ذاته يسكن صدري كلما تذكَّرت. ثم جاء يومٌ آخر؛ يوم ارتقى فيه "علي" ابن خالتي نداء. كنتُ وقتها أخبز في بيتها، وكانت الدنيا هادئة، ولا شيء يوحي بأن لحظةً آتية ستكسر القلوب.

دخل أحدهم وهو يلهث، وقال بصوتٍ متهدج: علي... استُشهد؟ تجمَّدت أيدي الجميع، وسقطت كلماتُه كالحجر في بركة سكوننا. ركضت خالتي، ووقفتُ أنا مذهولًا أمام النار التي كانت تُنْضجُ الخبز، كأنّ لظاها يشهد على احتراقنا من الداخل.

ذهبتُ معهم إلى المستشفى، إلى المغسلة ذاتها. وهناك، رأيتُ عليًّا ممدّدًا أمامي، فبدأت الذكريات تتزاحم: ضحكاته، جلساتنا، عصيرنا المفضّل، كلماته العذبة، وحضوره الذي كان يملأ المكان... كلُّ ذلك تحوَّل في لحظة إلى صمتٍ ثقيل، وإلى وداعٍ مؤلم.

وقفتُ أمامه أحبس دموعي كي لا أُظهر ضعفي أمام الناس، لكنّ قلبي كان يبكي بصوتٍ لا يسمعه أحد.

منذ ذلك اليوم، أدركتُ أن الحرب لا تقتل فقط مَن تُصيبهم القذائف، بل تزرع فينا نحن الأحياء موتًا مؤجّلًا، نحمله في ذاكرتنا كلما مرَّ طيف شهيدٍ أحببناه.

لقد أجبرتني الحرب والنزوح على أن أكبر قبل أواني، وأن أتحمَّل مسؤوليةً تفوق سنوات عمري وأنا لا أزال في الخامسة عشرة. لم يكن أمامي خيارٌ آخر؛ فالحياة كانت تطلب مني أن أكون رجلًا صغيرًا في مواجهة واقعٍ شديد القسوة.

بدأتُ العمل في بيع "توابل الطعام"، حيث كنتُ أقف من الصباح حتى المساء وسط ضجيج السوق ولهيب الشمس، أتعامل مع مختلف أصناف الناس، وأحاول أن أتعلم وأكسب رزقي بكرامة.

كنتُ أشعر بالفخر على الرغم من شدَّة التعب، لأنني بدأت أخطو أولى خطواتي نحو المسؤولية والاعتماد على الذات، لكنّ جسدي الواهن لم يحتمل ما كانت تحمله روحي من إصرار.

يومًا بعد يوم، بدأ الإنهاك يتسلَّل إلى جسدي حتى سقطتُ فجأة؛ فقد أصبتُ بالتهاب الكبد الوبائي الذي كان يتفشَّى في غزَّة. لم يتحمَّل جسدي الضعيف وطأة الألم، ولم أعد أقوى على الأكل أو الشرب.

كان لوني يميل إلى الصُّفرة، حتى عيناي اكتستا باللون ذاته، وشعرتُ بأن الموت يقترب خطوةً تلو أخرى.

مرَّت عليَّ أيامٌ طويلة كأنّها دهر، بقيتُ فيها طريح الفراش لأسبوعين، بين وجعٍ وخوفٍ وصمتٍ مطبق. كنتُ أقول في نفسي: ربما لن أعيش، ربما هذه هي النهاية، لكنّ الله كتب لي حياةً جديدة.

تعافيتُ ببطء، وعدتُ أتنفَّس الأمل من جديد، لكنّ اصفرار عينيّ بقي يذكّرني بتلك المرحلة القاسية. لقد علّمتني هذه التجربة أن المسؤولية ليست مجرّد كلمة، بل هي وجعٌ وتعبٌ وصبر، وأن النضج لا يُقاس بالسنوات، بل بما نحمله في قلوبنا من أوجاع وما نجتازه من محن.

شهادة ابني سليمان

كان ابني سليمان أنشط أبنائي، وقد كتب هو الآخر روايته عن هذه الحرب يقول فيها:

في صبيحة يوم السبت، السابع من أكتوبر 2023م، استيقظتُ من نومي متهيِّئًا للذهاب إلى المدرسة. أتممتُ روتيني الصباحي وارتديتُ ملابسي، وبينما كنتُ أربط حذائي، سمعتُ دويّ صواريخ مفاجئة. كانت لحظةً صادمة ومذهلة؛ استيقظ أبي على أثرها، وصعدنا أنا وأخي وهو إلى السطح لنستطلع الخبر، ومنذ تلك اللحظة بدأت رحلة المعاناة.

كنتُ أفرح كثيرًا حين أجدُ الماء، لكن الحصول عليه كان شاقًّا؛ ففي عمر الحادية عشرة، كنتُ أحمل دلو الماء الثقيل وأسير به مسافات. عانيتُ كثيرًا لكنني لم أستسلم؛ بدأتُ أبيع العصير، وأساعد عائلتي في جمع الحطب وتدبير الطعام. وبعد فترة، اشتدَّ القصف وصدرت أوامر الإخلاء، فنزحنا إلى مدينة رفح.

هناك، تجدَّدت المعاناة؛ فلكي أحصل على الماء، كان عليَّ تسلُّق جبلٍ رملي تحت أشعة الشمس الحارقة. وفي إحدى المرّات، ذهبتُ مع

ابن خالتي لإحضار الماء، وكان هناك اصطفافٌ كبيرٌ. انتظرنا دورنا بصبر، وعندما اقتربنا من الوصول، أتى رجلٌ واقتحم الدور، فاستشاط الرجل الذي كان أمامه غضبًا، وأخرج خنجرًا (سكينًا).

كان مشهدًا مرعبًا للغاية؛ هربنا من المكان والذعر يتملَّكنا، وبعدما ابتعدنا، تذكَّرنا أننا نسينا دلو الماء من شدَّة الخوف، فعدنا مجدّدًا ونحن نرتجف لنأخذه، لكننا في ذلك اليوم عدنا إلى الخيمة بلا قطرة ماء.

شهادة ثناء أبو دقة شقيقة زوجتي

شقيقة زوجتي، التي لها مكانة خاصة في قلوبنا، كانت شاهدةً حيّة على تلك الأيام، تروي لنا:

السابع من أكتوبر؛ هذا اليوم كان بالنسبة إلينا حدثًا يُخلَّد في تاريخ الشعب الفلسطيني. كنتُ أُفكِّر كبقية الناس: ما الذي يحدث؟ تركتُ زمام أموري لله عزَّ وجل، لكنني لم أستطع إخفاء شعوري بوجل الفَقْد، فصرتُ أتهرَّب من نفسي كي لا يفتك بي التفكير في هذا المصير.

في ذات يوم، كان والدي الشهيد الحبيب يصنع لنا الطعام، وكنا نضحك سويًّا ونتسامر لنخفِّف عن كواهلنا عبء التفكير. وفجأة، في ثاني أيام الحرب، طلب مني أن أجلس وأنادي باقي العائلة، ففعلتُ ما طلب.

قال لنا بالحرف الواحد: هل تبايعونني على الشهادة؟ فأجبناه جميعًا بصدرٍ رحب: نبايعك على أمنيتنا. ساد الصمت للحظة بعد تلك الكلمات التي خرجت من أعماقنا، لكنّ والدي كسر هيبة الموقف وبدأ

يداعبنا جميعًا من دون استثناء، حرصًا منه على ألّا يتسلَّل الخوف إلى قلوبنا.

أتى اليوم التالي وروتينه المعتاد، لكنني اختليتُ بنفسي في زاويةٍ على شرفة المطبخ، وأخذتُ أبكي وأنا أراقب طائرات الاحتلال وهي تطلق بالونات حرارية في السماء.

بكيتُ بحرقة، وفجأة وجدتُ والدي خلفي؛ قال لي بلهجةٍ واثقة: "لا تبكِ... لن أخرج من هذا المنزل إلّا إلى جنّة الفردوس الأعلى؛ فالاحتلال سيظلُّ يلاحقني، وسأختصر عليهم عناء الملاحقة".

لكنّ تفكير والدي تغيَّر فجأة، وقال لي: "عندما أطلب منكم الخروج من المنزل، ستخرجين أنتِ وبقية العائلة فورًا؛ لا أريد جدلًا وقتها، حتى إن كنا قد اتفقنا سابقًا على أن نستشهد سويًّا". وبالفعل، خرجنا حين طلب منا ذلك.

هناك، بكيتُ كطفلةٍ وقلتُ بصوتٍ مخنوق: "خَلَص... بكفِّي... وقفو الحرب!"؛ فلم أعد أحتمل الفراق، "بكفِّي" كانت هذه كلمتي، وصليتُ ركعتين تضرعًا لله عزَّ وجل، لأطلب منه أن يأذن لهذه الحرب بالتوقف، وبصوتٍ عالٍ كنتُ أناجيه وكنتُ واثقةً بأمر الله، لكن بعدها بأيام وأيام بدأت رحلة الشقاء والعناء مع النزوح.

ابني بهاء الدين ومشاهد من الحرب

بعد هذه الشهادات الحيّة من أشخاص عاينوا الويلات وتجرَّعوا المرارة، أتابع تدوين ما تحمله ذاكرتي من أحداث؛ سأروي شيئًا عن

طفلي الصغير، بهاء الدين، الذي وُلد قبيل الحرب بأشهر. طفلٌ لم يكن يتجاوز حينها شهوره الأولى، لكنّه تجرَّع مرارة الخوف والنزوح المستمر، وعانى من شُحّ الغذاء والحليب والماء. طفلٌ لا ذنب له، لا يعرف من الدنيا سوى البكاء، وكان بكاؤه الطويل يُجهد الجيران في خيمتنا، في وقتٍ لم يكن فيه الحصول على كوب ماءٍ أمرًا يسيرًا.

لقد شرب أبنائي الخمسة جميعًا من كوب ماءٍ واحدٍ طيلة اليوم، يرتشفون منه قليلًا فقط؛ لِيبلُّوا صدى عطشهم، لندرة الماء النظيف. هناك، نشأ بهاء الدين داخل خيمةٍ بسيطة، زحف على ترابها، ونبتت أسنانُه الأولى وهو لا يدرك من الحياة سوى دويّ الانفجار ومشاهد الدمار، وبكاء مَن حوله، وحسرة أمٍّ فُجعت بفقد أحبَّتها.

بهاء... لم يلعب كما يلعب الأطفال، ولم يهنأ بطفولةٍ كان يُفترض أن تكون ناعمةً كضحكة الصباح؛ بل ترعرع في أتون الحرب، ليكبر حاملًا في ذاكرته حكاية لجوءٍ، تمامًا كما حملتها أمّي التي وُلدت في نكبة عام 1948م.

كان الهمُّ الأكبرُ يكمن في كيفية إسكاتِ طفلٍ يواصلُ البكاءَ آناءَ الليل وأطرافَ النهار؛ لذا، لم ندَّخر جُهدًا في سبيل الحصول على كِسرةِ خبزٍ، أو علبةِ حليب، أو ما تيسَّر من معلّباتٍ أو خضار. استنزفنا سُبلنا كافة، حتى حانت اللحظةُ التي استطعتُ فيها - بأعجوبة - تدبيرَ القليلِ من الطحين عن طريق صديق. تسلَّلتُ به إلى الخيمة سرًّا كأنّه كنزٌ أُخفيه عن العيون؛ فالحاجةُ كانت تنهش الجميع، والكلُّ يبحثُ في مَتاهةِ الفقدِ ولا يجد.

صورة لطفلي بهاء الدين داخل الخيمة
وفي نفس الصور يظهر الشهيد نضال البريم ابن خالته

الفصل الخامس

وجوه الراحلين...
حين يصبح الغياب ذاكرةً دائمة

في كلِّ بيتٍ من بيوت غزَّة شهيد، لكن في بيتي صار للشهادة أكثر من وجه، وللحزن أكثر من اسم.

كلُّ واحدٍ منهم ترك شيئًا منّي معه، وكلّما حاولتُ أن أكتبَ عنهم، شعرتُ بأن الكلمات تخونني؛ فالعجزُ يسكن اللغة مهما بلغت، وهي لا تقدرُ أن تصفَ هولَ الغياب.

خالي كامل النجار

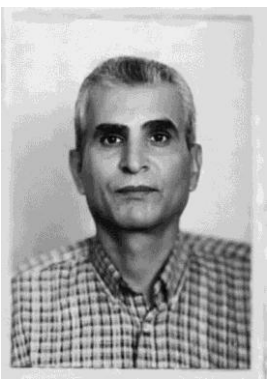

كان أولَ مَن علَّمني أن الأرضَ كرامة، وأن الفلاحَ حين يزرعُ إنما يودعُ قلبَه في التراب. استُشهد في المكان الذي أحبّه، في أرضه التي ظلَّ يحرسها حتى آخر رمقٍ في خزاعة.

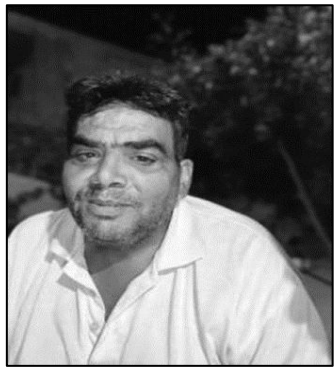

خالي أشرف

كان شعلةَ البيتِ وضحكتَه التي لا تنطفئ على الرغم من عصبيته العفوية؛ كان بحقٍّ فاكهةَ الحيِّ والشارع.

عاش بسيطًا كنسمة، ورحل بصمتٍ موجعٍ أمام الكاميرات في جريمةٍ وحشية، بينما كان يسعى لتعبئة (جالون) مياهٍ بالقرب من مستشفى ناصر، في أقسى الأيام التي عاشتها المنطقةُ إبّان الاجتياح البري. كان يرى في الحرب امتحانًا للصبر، لكنه لم يتخيَّل يومًا أن يكون هو أحدَ دروسها الأكثر قسوة.

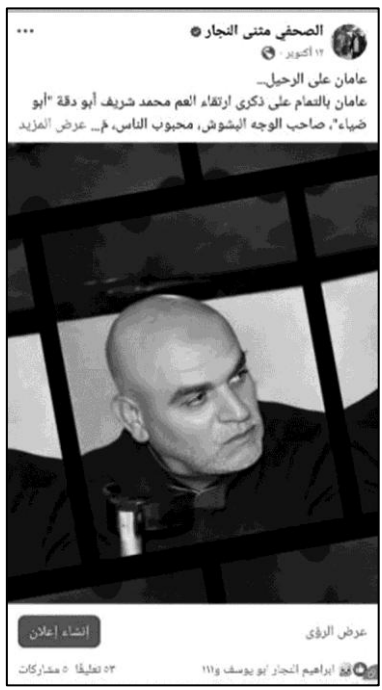

عمّي الشهيد محمد أبو دقّة

كان قريبًا من القلب، تسكنُه هيبةُ الهادئين، وطيبةُ الصالحين، ووقارُ رجالِ الإصلاح. حضوره لا يغيب، وقد استُشهد تاركًا في عائلته فراغًا لا يُملأ، وذكرى رجلٍ آمن أن الشهادة طريقُ مَن لا يقبلُ المساومة، على الرغم من أنه كان جريحًا سبق وأن ودَّع قدمه إثر قصفٍ إسرائيلي.

شقيق زوجتي ضياء الحق

شابٌّ في عمر الزهور، كان يُلقَّبُ بيننا بـ "ضياء القلب"؛ ارتقى قبل أن تكتملَ أحلامُه، فبقي اسمُه في البيت كدعاءٍ يُردَّد في كلِّ حين.

ابن عمتي حمادة أبو روك

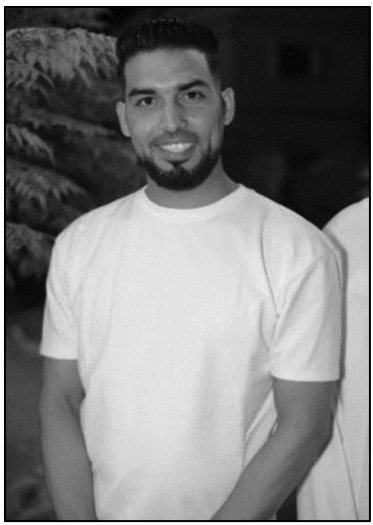

وجهه لا يُنسى، وضحكته كانت تسبق كلامه؛ رحل وهو يحاول إنقاذ مَن تبقَّى من عائلته تحت الأنقاض إثر القصف. كان سبّاقًا لمساعدة الجميع، لا يردُّ سائلًا من خلال عمله في بلدية خزاعة، مخلصًا في خدمته حتى الرمق الأخير.

ابن عمتي وائل قديح

شابٌّ خلوق، لم يكن يُكثر الكلام، لكنّ حضوره كان مهيبًا. عمل حلّاقًا، وكان في كل مناسبة أولَ الحاضرين وآخرَ المغادرين. رحيله المفاجئ كان كطعنةٍ في ظهر الأيام.

أقارب والدتي

سالم قديح، وسامي النجار، وسليمان النجار، وثلاثةٌ من أبناء شقيقته من عائلة شبير؛ وجوهٌ نُقشت في ذاكرة خزاعة، فقد كانوا يجتمعون دائمًا على الكلمة الطيِّبة والعمل الصالح.

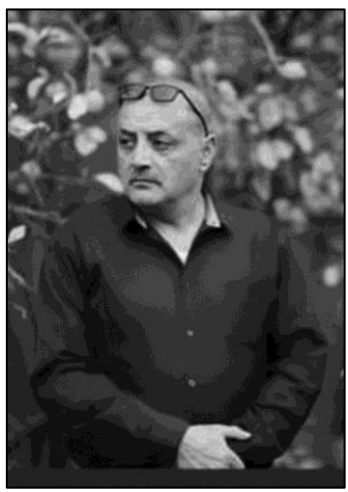

ابن العم المهندس عاصم النجار

كان مِثالًا للشابِّ الخدوم؛ موظفًا في بلدية خزاعة لا يحملُ من السلاح سوى قلمٍ وورقةٍ ومخططٍ لمستقبلٍ كان يحلمُ به. حين استُشهد، لم تفقد البلدةُ موظفًا فحسب، بل فقدت إنسانًا كان يُرمِّمُ انكساراتها ويُعيدُ لها نبضَ الحياةِ وسطَ الدمار.

مجزرة عائلة العم أبو نافذ النجار

خمسةٌ وعشرون شهيدًا، توقفتُ عند ارتقائهم خلال العملية البرية الأولى على مدينة خان يونس. هم من العائلات التي تشبَّثت ببلدة بني سهيلا ولم تغادرها، حتى باغتهم صاروخٌ إسرائيلي دمَّر منزلًا مكوَّنًا من أربعة طوابق على رؤوسهم، وكان من بينهم أحد عشر طفلًا. ظلَّت جثامينهم لأكثر من ثمانية أشهر في عِداد المفقودين حتى ذابت أجسادهم. تفاصيلُ هذه المجزرة البشعة - بكلِّ ما تعنيه الكلمةُ من قسوة - لا يتَّسعُ الكتابُ لذكرها، وقد جعلتني أتساءلُ بيني وبين نفسي: "هل يُمكن لقريةٍ صغيرة أن تحتمل هذا الكمَّ من الفقد؟".

في كلِّ مرَّةٍ أفتحُ دفتري لأكتبَ عمَّن فقدت، أشعر بأنني أكتبُ عن نفسي؛ فكلُّ واحدٍ منهم قطعةٌ من ذاكرتي، وكلُّ اسمٍ حكايةُ بيتٍ هُدم، أو حلمٍ وُئِدَ قبل أن يكتمل. عائلتي تفرَّقت في أزقة النزوح؛ إخوتي وأخواتي

وأبناءُ إخوتي في أماكنَ متباعدة، كأنّ الحربَ لم تكتفِ بتمزيق الأرض، بل قطَّعت حتى صِلات الدم. نتحدَّثُ عبر الهاتف، لكنَّ الصمتَ بين الكلمات أطولُ من المسافات الفاصلة بيننا.

أجلسُ وحدي أتصفَّحُ الصورَ القديمة، أحاولُ أن أستعيدَ ملامحَ الذين رحلوا، لكنَّ الحربَ لا تكتفي بسرقة البشر، بل تسرقُ ملامحَهم من الذاكرة ببطءٍ مؤلم.

وعلى الرغم من كلِّ هذا، أحاولُ أن أكتب؛ لا لأنني أرغبُ في ذلك، بل لأنّ الكتابةَ صارت وسيلتي الوحيدةَ للنجاة، ولأنّ أسماءهم يجبُ أن تُحفرَ في السطور كما حُفرت في سويداء القلب.

الفصل السادس

حين تصبح الكلمةُ وجعاً...
والمهنةُ رسالةً

لم أكن يومًا صحفيًّا يبحثُ عن العناوين الصاخبة أو الصور العاجلة، بل كنتُ أبحثُ عن الإنسان خلفَ الحدث، وعن النبض الذي يتردَّدُ من تحت الركام. كتبتُ عن الخيام والمنازل، عن الشهداء والجرحى، وعن المبدعينَ والفنانينَ والشعراء؛ أولئك الذين كانوا يصنعون من الألم لوحةً وصوتًا وأملًا. كنتُ أميلُ دائمًا إلى القصة الصحفية الإنسانية، لأنها الأقربُ إلى قلبي، ولأنها تسمحُ لي أن أرى وجوهَ الناس لا كأرقام صماء، بل كأرواحٍ لها تفاصيلها الصغيرة.

كنتُ أعيشُ مع القصص ولا أكتبُها فحسب؛ أتحدَّثُ مع الجرحى في المستشفيات، وأُصغي إلى الأطفال في الخيام، وإلى الأمهات اللواتي فقدنَ أبناءهنَّ وهنَّ يوارينَ الدموعَ تحت الحجاب.

كثيرون منهم صاروا أصدقائي، وبعضهم رحلوا وبقيتُ أحملُ أصواتهم في تقاريري؛ ومن الذين تركوا في قلبي أثرًا لا يُمحى، الرَّسامُ ضرغام قريقع.

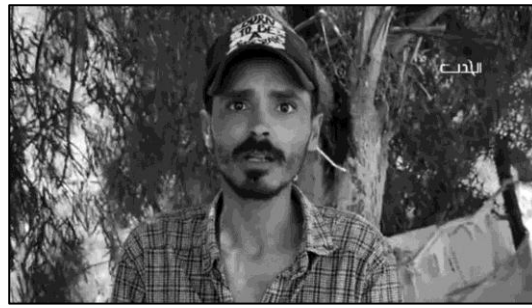

رسم ضرغامُ أحلامَ غزَّة بالألوان على الرغم من ركام الدمار، وكتبتُ عنه أكثر من مرَّة، حتى في قلب الحرب، لكنّ الأقدارَ كانت أسرعَ من ريشته، فاستُشهد تاركًا لوحاتٍ لم تكتمل. أمثالُ ضرغام كثيرون؛ ممَّن أُصيبوا أو ارتقوا، وكنتُ كلما كتبتُ عن أحدهم أشعرُ بأن جزءًا من روحي يُوارى الثرى معه.

كنتُ أصوغُ قصصهم بقالبٍ إنسانيٍّ لتصلَ إلى أبعد مدى، مُسخِّرًا لذلك كلَّ منصةٍ ممكنة: من تقاريري الإذاعية والتلفزيونية، إلى منشوراتي الرقمية، وقناتي على "يوتيوب".

كانت رسائلي تصلُ إلى العالم، لا عبرَ عدساتِ الكاميراتِ الضخمة فحسب، بل عبرَ صدقِ الكلمة ونبضِ القلب.

ومع مرور السنين، نلتُ جوائزَ عديدة، منها جائزةُ أفضل صانع محتوى على "فيسبوك" لعامي 2020 و2021م، وجائزةُ محمد دحلان للصحافة برفقة الصديق العزيز الشهيد حسن أصليح؛ لكنّ أسمى الجوائز وأقربَها إلى قلبي كانت حين يقولُ لي الناسُ في الشارع:

"إحنا بنحسّ فيك، بتحكي عنا".

كبرتُ بين الناس؛ في الأسواق والورش والمنازل والمخيمات، كنتُ حاضرًا في كلِّ زاوية، أبحثُ عن حكاية منسيةٍ وعن صوتٍ لا يُسمع. وصلتُ إلى الجامعات والمؤسسات لأشارك تجربتي، وقدَّمتُ دورات تدريبية للشباب الشغوفين بالصحافة، وكنتُ أقولُ لهم دائمًا:

"الصحافة ليست مهنةً... الصحافة روح".

ومع كلِّ ما مرَّ بي، لم أتوقَّف يومًا على الرغم من مرارة التجارب؛ كنتُ أرى الموتَ في كلِّ زاوية، لكني تمسَّكتُ بالحياة... تمسَّكتُ بالكلمة.

أتـذكَّرُ الموقـفَ الـذي غيَّـر شـيئًا عميقًـا بـداخلي؛ كـان ذلـك عـام 2020م، حين وثَّقتُ مشهدَ استشهادِ الشاب محمد الناعم قرب الحدود. صوَّرتُ مشهدَ سحلِ الجرافةِ الإسرائيلية لجثمانه، في لقطاتٍ تقشعرُّ لها الأبدان. انتشر المقطعُ في كلِّ مكان، لكني لـم أشـعر بالارتيـاح؛ فـذهبتُ إلى منزل عائلته لأعتذرَ إن كان المشهدُ قد آلمَ قلوبهم.

جلستُ أمام والدتـه، وقلـتُ بصـوتٍ متهـدّج: "لـم أقصـد أن أُؤذيَ مشاعركم".

فأخذت بيدي وقالـت وهـي تبتسـمُ وسـطَ دمـوعي: "يـا ابني، أنـت أظهرتَ للعالـم حقيقةَ ما يفعلونه بنا". في تلـك اللحظـة، علـى الـرغم مـن أنني لـم أكن أعرف الشهيد من قبل، شعرتُ بأني فقدتُ أخًا.

الحـربُ في غـزَّة لا تقتـل الأجسـادَ فحسـب، بـل تطحـنُ الـذكرياتِ والمنازلَ والأصدقاء. في يومٍ من الأيام، جـاءتني طبيبـةُ النسـاء والتوليـد، الـدكتورة فاطمـة شـلوف؛ كانـت تواسـيني في فقـد أقـاربي، وتقـول بثقـة: "حنكمّل للنهاية يا مثنّى، ما بنخاف".

بعدها بفترة، طلبت مني قناةٌ عربيةٌ رقمَ طبيبٍ مختصّ ليتحدَّث عن معاناة النساء تحت الحرب، فأعطيتُهم رقمها. ظهرت في اللقاء وهي تتساءل بحرقة: "لماذا يصفون شهداءنا بقتلى؟". ضحكت بعدها وقالت: "تذكَّرت الآية ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾".

في اليوم التالي، قصفت الطائرات منزلهم، فاستُشهدت الطبيبة وخمسة عشر فردًا من أسرتها. نزل الخبر عليّ كالصاعقة، ولم أستطع الحديث لساعات.

كما لن أنسى صديقي حازم بن سعيد؛ إذ كنتُ على تواصل دائم معه ومع والديه. في إحدى الليالي العصيبة، قال لي: "والدي خائف مش راضي يطلع من البيت".

وبعد نصف ساعة فقط، قصفت الطائرات المنزل، فاستُشهد والداه وعدد من أفراد العائلة، وأُصيب حازم بجراحٍ وفقد عددًا من أطفاله. لم أذق طعم النوم في تلك الليلة.

وعما عايشه الصديق حازم بن سعيد، من دير البلح وسط قطاع غزَّة، يروي شاهدًا:

في يوم الخميس 19 أكتوبر 2023م، عند الساعة الثانية والربع فجرًا، تلقَّيتُ اتصالًا من الزميل الصحفي مثنّى النجار للاطمئنان علينا بحكم قربه من العائلة.

دار بيننا حديث قصير، وسألني: "لماذا لا تغادرون المنزل؟"، وكان يقصد أن بيتنا يقع قرب الحدود شرقي دير البلح وسط قطاع غزَّة. نصحني بالمغادرة فورًا.

بعد المكالمة، عند الساعة الثالثة والنصف، تمَّ قصف منزلنا بصاروخ من الطيران الحربي الإسرائيلي.

كنتُ حينها في منزل ملاصق لمنزلنا، وكنتُ قد خرجتُ منه قبل القصف بخمس دقائق فقط.

في لحظة الاستهداف، كانت العائلة كلها داخل المنزل: أبي، وأمّي، وأخي وزوجته وأبناؤه، وابني أنس، وابنتي البكر أسيل.

قد يسأل سائل: لماذا كان أنس وأسيل في المنزل ولم يكونا معي؟

الجواب: أن أنسًا كان ينوي الذهاب مع أخي إلى الصيدلية لجلب دواء للصداع النصفي الذي كان يعانيه أخي الشهيد المهندس هاني بن سعيد، بينما كانت أسيل في المطبخ تحضِّر كوبًا من النسكافيه لعمها هاني؛ ولهذا استُشهدا مع العائلة.

عند البحث عن أهلي بين الركام، وجدتهم جميعًا خارج المنزل من شدّة الانفجار؛ كان أخي هاني أشلاءً مبعثرة، وأمّي بلا مخ، وأبي ينزف الدماء من أذنيه. أما زوجة أخي، فوجدتها خارج المنزل أيضًا وقد فارقت الحياة.

عندما وصلتُ إلى أسيل، وجدتها في المطبخ تحت ثلاث طبقات من الركام، وكانت محروقة وبجسدها إصابات خطيرة.

نُقلت إلى العناية المكثفة، لكنها استُشهدت في اليوم التالي، 20 أكتوبر 2023م.

واصلنا البحث عن أبناء أخي هاني، فتمكنا من سحب مريم وعلي وأحمد من الطابق الثاني، لكننا لم نجد (حسن)، وهو أصغر أبنائه، وبعد يومين عثرنا على جثمانه.

وفي تاريخ 8/ 4/ 2024، استُشهد أحمد، الطفل البكر لأخي، إثر استهداف مدفعي لمنزل كنا نجلس فيه، كما تعرَّضت شقيقته مريم للإصابة، وكذلك شقيقتي رنا حسن بن سعيد؛ ممّا دفعنا إلى النزوح من السكن الذي نقيم فيه إلى قرية المصدر شرقي دير البلح، ثم إلى المجهول.

في 10/ 8/ 2024، تمَّ تجريف دونمَيْن من أرض زراعية تعود لنا، كانت مزروعة بالحمضيات والزيتون، ولم يبقَ لنا أي مصدر دخل منذ ذلك الحين.

كانت تلك اللحظات أقسى ما مررتُ به في حياتي، لحظات لا يمكن أن تمحوها الأيام ولا الذاكرة.

* * *

مثل تلك المواقف التي عايشتها مع أصحابها، لم تكن مجرّد أحداث مهنية، بل جروح مفتوحة في الذاكرة؛ علّمتني أن الصحافة ليست فقط نقل الخبر، بل أن تكون شاهدًا على وجع الناس، وأن تشاركهم حزنهم بصدق.

اليوم، وبعد كل هذا، لم تَعُد الكاميرا بالنسبة إليّ أداة عمل، بل صارت نافذة للذاكرة، أضع فيها صور مَن رحلوا، وأسمع من خلالها صدى أصواتهم. وعلى الرغم من الألم، أقول دائمًا: ما زلتُ أؤمن بأنّ الكلمة قادرة على أن تهزم الرصاص.

الفصل السابع

الجسد ينهار... والروح تكتب

في غزَّة، لا يقتصر الخطر على الانفجارات والقصف فحسب، بل يمتدُّ إلى الجسد الذي أنهكته سنوات العمل الصحفي الميداني. لقد تمكَّن الألم من أصابع يديّ جميعًا، حتى غدوتُ أحيانًا عاجزًا عن الكتابة بسبب الوخز المستمر والوجع الذي يشلُّ الحركة. وإضافة إلى ذلك، أعاني من نوبات من الذهول والشرود، وخشونة في الرقبة، وآلام في الظهر؛ وكل ذلك نتاج سنوات من العمل تحت الضغط المتواصل والتعرض اليومي للمشاهد المأساوية، حتى باتت الإصابات جزءًا لا يتجزأ من المهنة.

في إحدى المرات، وأثناء تغطية قصفٍ استهدف مواطنين في بلدة القرارة، تعرَّضتُ لحادث أدَّى إلى تحطُّم كاميرتي وإصابة جسدي بجروح متفرّقة، نقلني الإسعاف على إثرها إلى المستشفى، لتظل تلك الجروح تذكيرًا دائمًا بأن الصحفي ليس بمَعزِلٍ عن الألم. وفي حادثة أخرى، كنتُ أرافق طاقم الإسعاف لإنقاذ مصابين في البلدة ذاتها، لكننا استُهدفنا أثناء الطريق، فأُصبتُ مع الطاقم، ولم نتمكَّن من الوصول إلى الضحايا إلّا بعد أن نُقِلتُ أنا أولًا إلى المستشفى لتلقِّي العلاج.

وفي موقف آخر، كنتُ برفقة الطواقم الطبية التي تبحث عن جثامين الشهداء قرب كيسوفيم؛ وأثناء تغطيتي للحدث، سقطتُ في حفرة وأُصبت، لكنني استمررتُ في التقاط الصور وتوثيق المشهد، متجاهلًا الألم الذي كان يسري في جسدي.

لقد كانت كلُّ إصابة بمثابة رسالة مزدوجة: أنين جسدٍ أنهكه العمل، ونبض قلبٍ يصرُّ على البقاء صادقًا مع الحدث ومع الناس. إن القيام بمهام المونتاج وكتابة التقارير وتصوير المشاهد معًا كان يمثّل حِملًا مضاعفًا على القلب والعقل؛ فكنتُ أستعيد تلك المشاهد القاسية أثناء المونتاج، وأشعر بالألم يتجدَّد في داخلي، كما لو أنّ كل رصاصة وكل انفجار يصيبني مرَّة ثانية. وعلى الرغم من كلِّ هذا الثقل، لم أتوقَّف يومًا عن التغطية أو الكتابة.

كنتُ أعلمُ أن الكلمة تحتاجُ إلى جسد وروح معًا، وأن أيّ توقُّفٍ قد يعني غياب الحقيقة عن الناس الذين ينتظرون صوتنا في خضمِّ الحرب. قد ينهارُ الجسد أحيانًا، لكنّ الروح تواصل الكتابة، وتصرُّ على أن تظلَّ شهادتُها حيّةً لأجل كلِّ مَن عاش وغاب ولم يجد مَن يروي قصته.

بكيتُ كبكاءِ الأطفال وأنا أخطُّ هذه الكلمات، وبكيتُ على أخبارٍ مرَّت بنا بقسوةٍ لا تُطاق. بكيتُ لأنّ الفقد أصبح ضيفًا ثقيلًا لا يغادرنا، ولأنّ وجوه الأحبة ما زالت تسكن الذاكرة على الرغم من الرحيل. بكيتُ صديقيَّ المقرّبين: كمال أبو طعيمة، وخالد أبو دقّة؛ فقد كانا أكثر من أخوين، كانا جزءًا من تفاصيل أيامي، ومن صدى صوتي وضحكتي.

وبكيتُ رحيلَ إبراهيم محارب، ساعدي الأيمن، وحبيب أطفالي والمقرّب إلى قلوبهم؛ ذاك الذي ما غاب عن الخيمة يومًا إلّا وترك أثره الطيِّب خلفه. بكيتُ على كثيرٍ من الأقارب والأصدقاء الذين تقاسمنا معهم مواقف لا تُنسى، كانت صادقة كوجوههم البريئة. بكيتُ على رحيل فيصل أبو القمصان، وسليمان حجاج، ومحمد أبو سخيل، وأنس الشريف، وصالح الجعفراوي، وحسام المصري؛ رحلوا جميعًا وبقيت مواقفنا معًا حيّةً في القلب، ناصعةً كأنها حدثت بالأمس.

ولن أنسى ابن العم مالك مازن النجار، الذي كان يسألني دائمًا عن الوضع الميداني، فكنتُ أمازحه قائلًا: "حتموت يا مالك".

فيبتسم ويرد: "لا، بدي أعيش".

لكنه ارتقى مع عائلته كاملةً، تاركًا في القلب وجعًا لا يزول. كما لن تُمحى من ذاكرتي طيبةُ علي ونضال، وضحكاتهما مع أطفالي،

وزياراتهما الدائمة لبيتي في كل مناسبة. ولن أنسى ليالي الخميس التي كانت تجمعني بكل أحبّتي في سهرات السمر وحفلات العشاء التي تملأ المكان دفئًا وفرحًا، ولا يمكن أن تغيب عن البال جولاتُ أم نسيم أبو رجيلة في بيت الريف الجميل؛ تلك الجولات التي كانت تبعث فينا الحياة والبسمة في خضمِّ التعب.

وأوجعُ ما في الذاكرة هم أولئك المصادرُ والزملاء الذين ارتقوا شهداء، وآخرون أُصيبوا بجراح، وبعضٌ ما زالوا يقبعون في سجون الاحتلال؛ فكلُّ اسمٍ منهم حكايةٌ تُروى، وكلُّ وجهٍ فصلٌ من فصول وجع الوطن وصموده. هي رواياتٌ نكتبها لأنها ستظلُّ حيّةً في الذاكرة، شاهدةً على زمنٍ حمل الوجع والحبّ والوفاء في آنٍ واحد.

وإن كانت الحربُ قد سلبتنا الكثير، فإن الكتابة ستبقيهم بيننا أحياءً لا يغيبون؛ فالحروف وحدها القادرة على حفظ الوجوه التي غيَّبها الموت.

رفيق الدرب حسن أصليح

كانت علاقتي بحسن أصليح علاقة أُخوَّةٍ حقيقية، تتجاوز حدود الزمالة والمهنة؛ كنا نتبادل الأخبار وننسِّق تغطياتنا معًا، حتى لا يكاد أحدنا يسلك طريق الميدان من دون الآخر. وإذا ذهب أحدنا بمفرده، كان لا بدّ من أن يتصل بالآخر ليُكمل معه القصة أو يتبادل معه المعلومة؛ فبيننا مودَّة نقيّة، ومواقف كثيرة جمعتنا على الخوف، والضحك، والحياة.

قبل الحرب بسنوات، عشنا سويًّا لحظات الموت في عدوان عام 2021م، وغيرها من الأحداث. وأتذكَّر تلك الليلة التي وقعت فيها مجزرة رفح[1]؛ حين جرت عملية اغتيال لشخصية قيادية في فصائل المقاومة، وكانت الساعة متأخرة جدًّا. قرَّرنا المغادرة من غزَّة إلى رفح على الرغم من الخطر المحدق وتحليق الطيران الذي لم يفارق السماء؛ خرجنا ونحن نودِّع بعضنا، ونرفع إصبع السبابة نتشهَّدُ طول الطريق، كأنّنا لن نعود أبدًا.

حين وصلنا إلى رفح، كانت جثث الأطفال الممزقة أمام أعيننا؛ صمتنا طويلًا، ولم نكن نملك إلّا أن نوثِّق المشهد ونحن نرتجفُ ألمًا. وأثناء مغادرتنا، قُصفت سيارةٌ كانت خلفنا مباشرة، فاشتعلت فيها النيران وتفحَّم مَن كان بداخلها؛ وقتها فقط، أدركنا بعمق معنى أن تكون الصحافة حياةً على حافة الموت.

(1) عملية اغتيال خالد منصور، القائد العسكري في سرايا القدس، في 6 أغسطس 2022م، والتي أسفرت عن استشهاد 7 وإصابة آخرين.

في حرب الإبادة عام 2023م، كنا نعمل معًا كل يوم؛ نرصد أسماء الشهداء، ونوثّق المجازر، ونواجه تهديدات الاحتلال المتواصلة. كنا نخاف على عائلاتنا أكثر من خوفنا على أنفسنا، ومع ذلك لم نتوقّف يومًا عن العمل، فقد كانت تربطنا علاقةٌ تشبه العائلة في تلاحمها. وحين أستحضرُ وجه حسن، أراه كما كان دومًا: مبتسمًا على الرغم من الحزن، جريئًا على الرغم من الخوف، وحنونًا على الرغم من الجراح.

وهنا أترك الكلمة لزوجته آلاء، فهي التي عاشت وجعه الأكبر، لتروي لنا جانبًا من تلك الحكاية:

أنا آلاء عطوة أصليح، زوجة الصحفي الشهيد حسن أصليح، وأمٌّ لأربعة أبناء؛ أكبرهم عبد الفتاح، ذو اثني عشر عامًا، وميلا الصغيرة ذات السنوات الثلاث.

كانت حياتنا بسيطة، نحلم ببيت آمن ومستقبل أفضل؛ وقد انتهينا من تجهيز بيتنا الجديد قبل الحرب بيوم واحد فقط، لكن الحرب جاءت لتدمِّر كلّ شيء.

خلال الحرب، نزحتُ مرات كثيرة من دون أن يكون حسن معي، بسبب تهديدات الاحتلال المباشرة له.

كان يزورنا لخمس دقائق فقط، يتسلَّل مختبئًا من الطائرات ليحضن أبناءه؛ فيركض الصغار لاستقباله، بينما أحاول أنا إخفاء ارتجاف يديّ خوفًا عليه.

كان يحمل لنا بعض الحاجيات البسيطة ويبتسم كأنّ الدنيا لا تزال بخير.

كنتُ أقول له دائمًا: "لم أرَك جيدًا يا حسن... لقد اشتقنا إليك".

في أحد الأيام، انقطعت أخباره تمامًا؛ كنتُ حينها نازحةً في خان يونس وهو في رفح، فلا اتصالات ولا إنترنت، ولا شيء سوى الانتظار المرّ. وبعد شهر من القلق المميت، رنَّ هاتفي يوم عيد ميلادي، في الثاني عشر من ديسمبر، ليقول لي:

"كل سنة وأنتِ بخير يا زوجتي... اليوم عيد ميلادك".

بكيتُ يومها بحرقة، ليس لأنّه تذكَّر يومي فحسب، بل لأنني سمعتُ صوته بعد غياب طويل.

وفي السابع من أبريل لعام 2025م، أُصيب حسن إصابةً بالغة أدَّت إلى بتر أصابع يده اليمنى. كنتُ أزوره كل يوم، أطعمه بيدي، وأحاول جاهدةً إخفاء دموعي وهو يبتسم لي رغمًا عن الألم.

كان يقول لي بصوتٍ مثقل: "روحي يا مرتي، بلاش نموت سوا، ديري بالك على الأولاد".

كنتُ أخرج من عنده وجبلٌ من الخوف يجثم على صدري، كأنني أترك قطعةً من روحي خلفي.

كان حسن حزينًا على أصدقائه الشهداء، يخاف علينا كثيرًا، ويحدّثني دومًا عن إحساسه بأن استهدافه بات قريبًا. وعندما وصلني خبر استشهاده، سقطت الدنيا من حولي؛ لم أصدِّق، ولن أصدِّق حتى اليوم، أن (حسن) قد رحل.

لا أزال أشعر بأنه سيعود في أي لحظة، يحمل بيده خبزًا دافئًا، وابتسامةً تُضيء وجوه الأطفال. لكنّ (حسن) لن يعود؛ ترك لنا صوته،

وصوره، وشجاعته، وترك فينا حكاية رجلٍ واجه الخطر وفضح القتل بالصورة.

رحل وهو يحمل الحقيقة، وترك لنا وهجها ليبقى شاهدًا عليه. هكذا يظلُّ حسن أصليح في ذاكرة زملائه وأحبّته؛ رفيق الضوء وصوت الحقيقة، الذي اختار أن يعيش بين الكاميرا والخطر، ليقول للعالم:

هنا غزَّة، وهنا الإنسان.

الفصل الثامن

شهود الصحافة في زمن الإبادة... صفحات مكتوبة بالدم والعدسة والصوت

في كلِّ حرب، ثمَّة مَن يروون الحكاية، وثمَّة مَن يُمحى اسمهم مع الغبار؛ لكن في حرب الإبادة على غزَّة، كان الصحفيون هم الحكاية نفسها.

خرجوا بحثًا عن حقِّ الناس في رواية ما يحدث لهم، حملوا الكاميرات كما يحمل المقاتل بندقيته، ووقفوا في وجه أعتى آلة قتلٍ عرفها هذا العصر، ليكتبوا ما لم تَقْدِر على قوله الكلمات.

كانوا يمشون إلى الموت وهم يعلمون أنه ينتظرهم، ومع ذلك واصلوا؛ فمنهم مَن غطَّى الغارات وهو ينزف، ومنهم مَن فَقَد عائلته وعاد إلى الميدان بعد دفن أحبّته، ومنهم مَن رحل ولم يبقَ منه سوى آخر لقطةٍ التقطتها كاميرته قبل أن تُغمد في التراب.

لم يكن الصحفي شاهدًا فقط، بل كان الضحية والشاهد، والناقل والجريح، والناجي الأخير من الذاكرة.

صارت الكاميرا في غزَّة تُشبه مرآةً للإنسانية، يرى من خلالها الناسُ كلَّ شيء.

إنّ هذه الشهادات وصايا حيّة لأجيالٍ ستعرف من خلالها كيف كانت الكاميرا تقاتل.

هنا، نتوقّف أمام شهود الصحافة الذين لم يكتفوا بتوثيق الحرب، بل صاروا جزءًا من تاريخها، ووجعًا في ضمير الإنسانية.

صورتي مرآة لأوجاع شعبي

رواية الصحفي زياد المقيّد

ليس سهلًا على صحفيٍّ فلسطينيٍّ أن يحمل الكاميرا والقلم، ويترك خلفه بيته وأطفاله ليُقيم في قلب النار، لكنني فعلتُ ذلك... لأجل غزَّة.

في صباح السبت، السابع من أكتوبر لعام 2023م، غادرتُ منزلي في دير البلح، مودِّعًا عائلتي كالعادة على أمل اللقاء المرتقب، لكن تسارع الأحداث جعلني أتفرّغ لنقل الحقيقة عبر فضائية الأقصى من داخل مجمَّع ناصر الطبي في خان يونس؛ حيث كانت مواكب الشهداء والجرحى تصل من دون انقطاع.

كنتُ أظنُّ أنني رأيتُ أقصى ما يمكن أن تراه العين من فواجع، إلى أن جاء صباح الثلاثاء، السابع عشر من أكتوبر.

كنتُ أتابع الأخبار كعادتي حين رنَّ الهاتف، وكان صوت أحد الجيران يتهدّج بالبُكاء: "تمَّ قصف بيتك... وربنا يعوضك خير".

في تلك اللحظة، جفَّ الكلام في حلقي، وعجزتُ تمامًا عن التصديق.

غادرتُ المستشفى مسرعًا والدموع تسبقني، بينما الذاكرةُ تُعيد لي شريط آخر مكالمةٍ مع عائلتي في الليلة السابقة؛ كانت أطول مكالمةٍ أجريتها معهم منذ بدء العدوان.

ابنتي "سما" طلبت مني أن أعود لنحتفيَ بيوم ميلادها الحادي عشر في اليوم التالي، الثامن عشر من أكتوبر؛ وعدتُها أن آتي صباحًا ومعي الهديّة التي تمنَّتها.

كنتُ أسمعها تقول بصوتٍ مرتجف: "بابا أنا خايفة... وبدي أموت".

ولم أكن أعلم حينها أن خوفها كان نبوءةً صادقة.

في الطريق إلى دير البلح، كان الأمل يتشبَّث بي كما تتشبَّث الأرواح ببقايا الحطام، حتى جاءني اتصالٌ آخر من أحد الزملاء لينهي كلَّ شيء: "ربنا يعوضك خيرًا... إحنا فوق ركام بيتك، وابنك محمد معنا... هو بخير".

تجمّدتُ في مكاني بين حمدٍ ودمع. وصلتُ لأجد الناس يحاولون إزالة الركام، ولم أجد جسدًا كاملًا لأحد؛ زوجتي الحافظة لكتاب الله، وأبنائي الثلاثة، ووالدة زوجتي... الكل استُشهد.

كان البيت حفرةً غائرةً في الأرض كأنّها ابتلعته.

جمعتُ ما استطعتُ من أشلاء زوجتي "سماح"، معلمة التربية الإسلامية الخلوقة والطيِّبة التي كانت الابنة الوحيدة لأسرتها، وأطفالي: "سما" ذات الاثني عشر عامًا، و"عبد الله" ذو السنوات السبع، و"زين" الصغير ذو السنوات الثلاث، وحماتي التي كانت في زيارة لنا؛ كلّهم غابوا، ولم ينجُ سوى بِكري "محمد" ذو الثلاثة عشر عامًا، الذي كان يملأ الماء ليعود إلى المنزل حين سقطت الصواريخ على عائلتي.

سجدتُ باكيًا أمام الكفن الواحدِ الذي ضمّهم جميعًا، احتضنتُه بذراعيّ كما لو أنني أحتضن قلوب الراحلين؛ وعلى شاهد قبرٍ واحد كُتبت أسماؤهم، ودموعي تسيل فوق الحروف.

عدتُ إلى المنزل كما وعدتُ "سما"، لكنني لم أجدها تنتظرني، ولم أحتفل بميلادها، بل شيّعتُها إلى مثواها الأخير.

لم تكن "سما" مجرّد طفلةٍ متفوّقةٍ حفظت ثمانية أجزاء من القرآن، ولا "عبد الله" مجرّد طفلٍ محبٍّ للقراءة، ولا "زين" مدلّلي الذي يحبُّ اللعب ويسأل كثيرًا... بل كانوا روحي التي انطوت معهم في كفنٍ واحدٍ ورحلت.

وفي اليوم التالي للفاجعة، جاءني خبر استشهاد "عمّي" والد زوجتي في قصف مسجد السلام بعد صلاة المغرب، بينما كان يئمُّ المصلين هناك.

ومن تحت الخيمة الصغيرة، التي شيّدتها الأيادي نفسُها التي حملت الكاميرا وأنجزت تقارير توثّق جرائم الاحتلال مع الزملاء أمام المستشفى الكويتي في رفح، جلستُ أطلّ على العالم من جديد، أروي الحكاية وأواصل رسالتي.

قلتُ لرفاقي:

"الاحتلال يستهدفنا لأنّ الصورة التي نحملها للعالم تفضح كذبه، وتكشف زيف روايته؛ نحن شهودٌ على الجريمة، ولسنا مجرّد ناقلين".

أدركتُ أن عملي صار جزءًا من المعركة، وأن توثيق الحقيقة هو فعل مقاومةٍ بحدّ ذاته.

لذلك جفَّفتُ دمعي، وضمّدتُ جراحي، وعدتُ أعمل كما كنت، بذات العزيمة التي كنتُ أحملها قبل أن أفقد كلَّ شيء.

وكلّما سألتني روحي المنهكة: "أما تعبت؟"، أجيبها بأن رسالتي لم تنتهِ بعد؛ فصوتي بات لسان الشهداء، وصورتي مرآةً لأوجاع هذا الشعب.

أنا زياد المقيّد، الصحفيُّ ابن قطاع غزَّة، فقدتُ عائلتي كلّها في لحظة... لحظةٍ توالت فيها النكبات والأوجاع دفعةً واحدةً؛ لكنني ما زلتُ أقاوم من موقعي، حتى آخر نفَس...

لأنّ الحقيقة هي آخر ما تبقَّى لنا في وجه هذا العالم الأصمّ!

نحمل الرسالة ولو على عكاز

رواية الصحفي خالد عبد الحميد شعت
مراسل ومصور صحفي من قطاع غزَّة

في الأيام الأولى من الحرب، كنتُ أتنقَّل بين خطوط النار أحمل كاميرتي كشاهدٍ على ما يجري؛ لكن سرعان ما أصبحتُ أنا الجريح الذي يوثِّق الألم من داخله. أصابتني شظيةٌ أثناء تأدية عملي الميداني، وخضعتُ لعملية جراحية في قدمي داخل مجمَّع ناصر الطبي بخان يونس.

كان المشهد في المستشفى يفوق الوصف: آلاف الجرحى يفترشون الممرات، أصوات الألم تتعالى من كل زاوية، والأطباء منهكون يركضون بين الأرواح المتعبة من دون أن يجدوا وقتًا لالتقاط أنفاسهم؛ كانت المعدات شحيحة، والأدوية شبه معدومة، وغرف العلاج تضيق بالبشر.

وسط هذا الزحام، كنتُ أتعافى ببطء محاطًا بالدماء والأنين، أنتظر اليوم الذي أستطيع فيه الوقوف مجدّدًا خلف الكاميرا. مكثتُ هناك قرابة شهرين، حتى اقتربت قوات الاحتلال من المجمَّع، فاضطررتُ إلى المغادرة قبل اكتمال علاجي؛ خوفًا من مصيرٍ يشبه ما جرى في مستشفى الشفاء، حيث اعتُقل المرضى وتعرَّضوا للتنكيل.

غادرتُ إلى مدينة رفح في الخامس من ديسمبر لعام 2023م، أعيشُ في خيمة نزوح وأنا بأمسّ الحاجة للعلاج؛ كان البلاتين لا يزال في قدمي، لكن بفضل الله تعافيتُ تدريجيًّا، وتمكَّنتُ من إزالته والعودة إلى الميدان مستندًا إلى عكاز، لأكمل رسالتي رغمًا عن الألم.

وخلال تلك الفترة، دمَّر الاحتلال منزل عائلتي المكوّن من أربعة طوابق في حيّ السلام شرق خان يونس، فأُجبرنا على النزوح مجدّدًا. نصبنا خيمةً بجوار الأنقاض نحتمي بها من الرياح والبرد، ومع تجدُّد الحرب بعد الهدنة القصيرة، نزحنا ثانيةً نحو مواصي خان يونس، حيث نعيش حتى اليوم.

نجوتُ من الموت أكثر من مرَّة، لكن أكثر اللحظات قسوةً كانت في السابع من أبريل لعام 2024م، حين استُهدفت خيمة الصحفيين قرب مجمَّع ناصر. استُشهد الزميلان أحمد منصور وحلمي الفقعاوي، اللذان يعملان في وكالة فلسطين اليوم الإخبارية، وأُصيب المصوِّر حسن أصليح وآخرون.

كنتُ على بُعد أمتار قليلة من موقع القصف، واصطدمت الشظايا بخيمتي؛ هرعتُ إلى المكان لأجد أحمد منصور والنيران تلتهم جسده... مشهدٌ لن يغادر ذاكرتي ما حييت.

بعدها بشهرين فقط، استُهدف الزميل المصوِّر حسن أصليح مجدّدًا أثناء جلوسنا معه؛ فكنتُ أول مَن وصل إليه، أزيح الركام عن جسده الطاهر بيديّ. كانت تلك اللحظات أعمق جرحًا من إصابتي الجسدية ذاتها، وتركت في داخلي ندوبًا لا تُشفى.

رجتني عائلتي أن أترك العمل خوفًا عليّ، لكنني تمسَّكتُ بالكاميرا؛ لأنها سلاحي الوحيد في وجه هذا الظلم.

وفي يومٍ آخر داخل مجمَّع ناصر، بتاريخ الخامس والعشرين من أغسطس لعام 2025م، دوّى انفجارٌ هائل أثناء تغطيتي لتشييع الشهداء؛ هرعتُ نحو المكان لأكتشف أن القصف استهدف السطح الذي كنا نصعد إليه يوميًّا لالتقاط الصور وربط الإنترنت.

كان الهدف هذه المرة زملاءنا: حسام المصري (وكالة رويترز)، ومريم أبو دقّة، ومحمد سلامة، ومعاذ أبو طه، وأحمد أبو عزيز.

وثَّقت اللحظات الأولى للاستهداف، ونجوتُ من قصفٍ ثانٍ بعد لحظات فقط من قراري بعدم الصعود.

رحل الزملاء الذين شاركوني الخبز والخوف، وبقيت ذاكرتي تحرس وجوههم.

بعد وقف إطلاق النار، واصلتُ العمل مع زملائي لتوثيق الخروقات والمخاطر التي يتعرَّض لها المواطنون وسط خان يونس؛ لكن طائرات الاحتلال ودباباته أطلقت النار علينا مباشرة بتاريخ الثامن والعشرين من أكتوبر لعام 2025م، في محاولة لإسكات الكاميرا، لا الصوت فقط.

اليوم تغيَّرت الملامح، وهزلت الأجساد من الجوع والخوف، وتسلَّل الشيب إلى رؤوسنا قبل أوانه، لكنّ الإصرار لم يتراجع؛ ما زلنا نحمل الكاميرا في وجه الموت، نكشف الحقيقة ونوثِّق الوجع، لأنّ الصورة باتت الشاهد الأخير على حياة تُمحى كلَّ يوم.

النزوح المُرّ والفاجعة

رواية الصحفي صالح المصري
مدير عام وكالة فلسطين اليوم الإخبارية

في صباح السابع من أكتوبر 2023م، كان كلُّ شيء يوحي بأننا مقبلون على أيامٍ حالكة. التفتُّ إلى زوجتي وقلت لها بصوتٍ يختلط فيه الحدس بالخوف:

"الشعب الفلسطيني سيشهد أيامًا سوداء؛ جهّزي حقائب صغيرة، ضعي فيها أوراقنا المهمة وكلّ ما لا يمكننا الاستغناء عنه".

كـأنّ شـيئًا في داخلـي كـان يستشـعر العاصـفة قبـل أن تهـبَّ؛ ومـع حلول الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، بدأت الطائرات تصبُّ نيرانها فـوق غـزَّة، وافتُتحـت الحـرب الدمويـة بقصـفٍ عنيـف طـال الأرض الملاصقة للبناية التي نسكنها قرب مسجد فلسطين في حيّ الرمال بمدينة غزَّة.

اهتزَّ كلُّ شيء، تصدَّعت الجدران، وانهار جزءٌ من المبنى، وتحوَّل الليل إلى كـابوسٍ مـن نـارٍ وغبـارٍ وصـراخ. خرجنا حفـاةً نـركض وسـط الركـام والـدخان، نبحـث عـن نجـاةٍ لا وجـود لهـا. كـان وجهـي مغطًّى بالـدماء، ويـداي وقـدماي مثخنتـان بـالجراح. أُصـيبت زوجتـي، فحملها الجيران مـن عائلـة ثابـت إلـى داخـل منـزلهم المقابـل، واتصـلوا بالإسعاف.

ذهبت زوجتي في سيارة الإسعاف إلى مستشفى الشفاء، وبقيتُ أنـا مـع أطفـالي الصـغار، أضـمّهم إلـى صـدري وسـط العتمـة، أحـاول أن أطمئنهم بوجودي.

في تلـك اللحظـات نسـيتُ أننـي صـحفيٌّ، وغلبتنـي غريـزة الأب؛ فكنتُ أمضي الوقت أُهدّئ صـغاري الـذين يبكـون مـن الخـوف مـع كـلِّ انفجار قريب.

حين بزغ الفجر، عادت زوجتي من المستشفى، وبـدأت منـذ تلـك اللحظة رحلة النزوح الأولى؛ تفرّقنا، فذهبت هي إلى منـزل صـديقتها في حيّ الشـيخ رضـوان بغـزَّة، بينمـا عـدتُ أنـا إلـى الميـدان؛ إلـى مستشـفى الشفاء حيث كانت تتكدّس الجثامين وتتعالى صرخات الجرحى.

اشتعلت الحربُ أكثر، وتصاعدت وتيرة الانفجارات؛ كانت زوجتي تتنقَّل من بيتٍ إلى آخر هربًا من القصف، أربعة منازل في ثلاثة أيام. وفي النهاية، قرَّرتُ أن أنقلهم إليّ، إلى حيث يعمل الصحفيون في أروقة مستشفى الشفاء.

وصلوا مرهقين جائعين، وأجسادهم الصغيرة ترتجف من البرد والخوف، ثم غلبهم النوم في أحد ممرات المستشفى. لم نلبث طويلًا، فسرعان ما اضطررنا إلى النزوح مجدّدًا؛ من غزَّة إلى خان يونس، ثم إلى رفح، ثم عدنا إلى خان يونس؛ كانت الرحلة أشبه بعبورٍ طويل وسط الألم والخوف والضياع.

كنتُ أتنقَّل مصابًا بجراح الحرب، أحمل حقيبتي الصحفية بيد، ويدي الأخرى تمسك بطفلٍ أو ترفع غطاء الخيمة. كانت زوجتي تحتاج إلى عملية جراحية عاجلة، لكن المستشفيات كانت تفيض بالجرحى، والإمكانات معدومة.

النزوح كان اقتلاعًا من الذات، وتيهًا في المجهول، وقطعةً من العذاب اليومي؛ حين تجد نفسك بين واجبين لا يمكن الجمع بينهما: أن تبقى صحفيًّا يشهد ويكتب، وأن تكون أبًا يبحث عن لقمةٍ وملاذٍ لأطفاله.

كيف تكون صحفيًّا يروي للعالم تفاصيل الحرب، بينما عائلتك تحيا الحرب نفسها؟ وكيف تكتب عن النزوح، وأنت تنام في خيمةٍ لا تقي حرَّ الصيف ولا برد الشتاء؟

في كل لحظةٍ كنتُ أدوّن فيها، كنت أعلم أنني لا أكتب عن الناس فقط، بل عن نفسي أيضًا، عنّا جميعًا؛ أولئك الذين لم يجدوا في الحياة

سوى خيار الصمود، لأنّ البقاء ذاته صار أشد أشكال المقاومة.

في السادس عشر من أكتوبر عام 2023م، تلقَّيتُ الصدمة التي لن تُمحى من الذاكرة ما حييت؛ في ذلك اليوم، فقدتُ أخي الأكبر، ومعه فقدتُ السَّند والمربي والأب الذي احتوانا بعد رحيل والدنا.

كنتُ في تلك الليلة قد أرهقتُ نفسي في تغطيةٍ دموية من قلب مخيم الصحفيين في مستشفى ناصر، وعدتُ لأنام بضع دقائق لعلّها تخفِّف عني، لكنّ الهاتف رنَّ مع بزوغ الفجر؛ كان الصوت المرتجف لابنة أختي من بلجيكا يبكيني قبل أن أفهم ما تقول.

كانت تصرخ وتستجدي الإجابة:

"خالي، أين خالي أبو محمد؟ هل هو بخير؟".

لم أجد ما أقول، كنتُ أحاول أن أهدِّئها بينما كنتُ أنا في أمسّ الحاجة إلى مَن يهدِّئني، إلى مَن ينتشلني من الصدمة.

هرعتُ إلى ثلاجة الشهداء في مستشفى ناصر، حيث كانت الأرواحُ الطاهرةُ هناك؛ سألني المشرفون عن أحدٍ من العائلة ليتعرَّفَ إلى الجثث، وكانت كلمةُ "جثث" تصفعُ أذني كأنها طعنة.

دخلتُ إلى الغرفة الباردة، وبين أكياس الموت تعرَّفتُ إلى وجه أخي؛ الأستاذ محمود سليمان المصري (أبو محمد). وجهه الذي طالما أضاء دروب طلابه ومحبيه، كان ساكنًا هذه المرَّة... بلا صوت، وبلا حياة.

سقطتُ مغشيًّا عليّ من هول ما رأيت؛ من هول أن يُختزل إنسانٌ بحجم وطن في كيسٍ صغير من النايلون. لم يكن وحده، فبرميلٌ متفجرٌ

واحد كان كفيلًا بتحويل منزلٍ عامرٍ بالحب والعلم إلى ركامٍ يبتلع أصحابه جميعًا.

رحل معه رفاق قلبه، أسرته الصغيرة التي كانت له حياةً ومعنى:

زوجته: رانيا المصري (أم محمد)

وأبناؤه:

محمد محمود المصري

أحمد محمود المصري

وزوجته شهرزاد مجدي المصري (الأخرس)

وابنتهما: الطفلة هانزادا أحمد المصري

وبراء محمود المصري

وآية محمود المصري وابنها محمود عبد الحي السباغي

وزوجة أخي محفوظ: منال نظير المصري (أم وديع)

وابنتها وئام محفوظ المصري

كان الرحيل جماعيًّا كأنّ الله قد اختار لهم طريق الخلود مجتمعين، كما عاشوا دومًا متآلفين متحابين.

لم يتبقَّ من ذرية أخي محمود أحد؛ رحلوا جميعًا، لكن ذكراهم بقيت حيّةً في قلوب مَن عرفوهم، تنبض بما تركوه من أثرٍ طيِّب وسيرة ناصعة.

ذلك اليوم علَّمني أن الصحفي لا يكون دائمًا راويًا للحكاية، إنما قد يصبح جزءًا منها، بل لحمٌ من لحمها. في لحظات الحرب، نصبح نحن الخبر، ونحن الصورة، ونحن الصرخة التي لا تجد مَن يرويها. لقد غدت المأساة التي كنت أرويها للناس مأساةً تسكنني، وتسكن الكاميرا

والقلم وكلّ ذرَّة من وطني. رحم الله أخي ومعلمي، وكلّ مَن رحلوا في تلك الفاجعة، وجعل كلماتنا بعدهم شاهدًا على الحقيقة، وعلى إنسانٍ لم يمت صوته، على الرغم من أن جسده غاب تحت الركام.

الكاميرا مقابل كيس من الدقيق

رواية الصحفي إبراهيم أبو شعر
من قلب مدينة غزَّة

منذ أن بدأت الحرب الإسرائيلية على قطاع غزَّة، بدأنا فصلًا صعبًا في حياتنا الصحفية. فنحن جزءٌ من النسيج المجتمعي الفلسطيني وأصحابُ قضيةٍ قبل أن نكون أصحاب رسالة؛ لذلك أخذنا على عاتقنا حمل الأمانة في توثيق الأحداث، والبحث عن كافة السبل لتصدير الصورة، ليعرف العالم حجم الظلم الذي تعرَّضنا له في غزَّة. لقد اصطدمنا بواقع مؤلم، حيث كان لزامًا علينا أداء مهمَّتنا الصحفية بالتزامن مع تأمين حياة عائلاتنا، ولا سيما الأطفال منهم؛ لقد كانت مهمَّةً شاقة تحمل تفاصيل موجعة.

أمّا عن تجربتي الشخصية خلال التغطية الصحفية في هذه الحرب، فقد كانت أشبه بخروج الروح من الجسد؛ فعلى مدار عامين ويزيد لم نغادر الميدانَ نلاحقُ الحدثَ ونوثِّقُ الصورة، وفي المقابل كان أطفالي يتضورون جوعًا، ناهيكم عن مسلسل النزوح الأشدّ وجعًا وقهرًا، حتى إنني اضطررتُ إلى عرض كاميرتي للمقايضة مقابل كيسٍ من الدقيق لسدِّ جوع أطفالي، على أن أستمرَّ بالقلم بلا توقُّف.

تعرَّض منزلنا بتاريخ 15/ 1/ 2025 للقصف، وإثر ذلك فقدتُ ستة أطفالٍ من عائلتي، وأُصبتُ في رأسي كما أُصيب طفلي ريان (عام ونصف)، كذلك أُصيبت والدتي وعددٌ من أبناء إخوتي وزوجاتهم، لتزداد المشقّة في تحمُّل عبء المسؤولية.

وعلى الرغم من المعاناة والفقد، استكملتُ مسيرتي الإعلامية ولم أتوقَّف عن العمل لتستمر التغطية؛ فكلما شعرتُ باليأس أو الخوف ممّا هو آتٍ، تذكَّرتُ زملائي شهداء الحقيقة، فما زدتُ إلا إصرارًا على استكمال رسالتهم.

كانت تغطيتنا لا تخلو من مشاهدَ ظلَّت عالقةً في ذهني، ولا يمكن طيَّها في ذاكرة النسيان؛ فلا يمكن أن أنسى الطفلة سارة البرش، التي جاءت مصابةً إلى قسم الاستقبال في المستشفى المعمداني بعد غارةٍ استهدفت منزلهم، فاستشهد والدها وبُترت يداها الصغيرتان، حيث كانت ترتدي في إحدى يديها سوارًا مزخرفًا لفت نظري، فأخبرني عمّها أنها كانت ترقص فرحًا بسوارها قبيل الاستهداف.

ومن المشاهد المؤلمة أيضًا، تلك المرأة التي جاءت تسحب زوجها الشهيد وتزفّه بكلمات الصبر والثبات، بعد استهدافهم من قبل المدفعية الإسرائيلية لحظة نزوحهم من حيّ التفاح شرقي مدينة غزَّة، وكان على يدها طفلها الصغير الذي بدت عيناهُ مصدومتين من هول المشهد.

كنتُ شاهدًا على لحظة وصول سيدةٍ إلى المستشفى المعمداني، وهي تحمل في كيس رفاتَ والدها وبعضَ أفراد عائلتها، بعد أن حفرت بيديها على مدار 44 يومًا لاستخراجهم من تحت الركام.

ومن أصعب اللحظات التي عشتها، لحظةُ استهداف مجموعة من المواطنين مقابل المستشفى المعمداني بغزَّة، ولم أكن أبعد سوى أمتارٍ قليلة عنهم، وقد كتب الله لي النجاة؛ حينها أخرجتُ هاتفي أوثِّق المشهد من دون أن أعلم أنني قد أُصبتُ أيضًا في قدمي اليسرى، وكان الدم ينزف من دون شعورٍ مني به، حينها شعرتُ بالخوف والتوتُّر واعتقدتُ أنه قد حان الأجل، لكنها كانت عناية الرحمن.

المشاهدُ كثيرةٌ ولا يمكن حصرها، فما زالت تسكن عقلي لتكون دافعًا قويًّا لاستمرار تغطيتي وعملي الصحفي، وامتدادًا لوصية مَن فقدناهم في حرب الإبادة الجماعية.

لم تنتهِ المهمَّة بعد، وما زلنا على رأس عملنا، لا نملُّ ولا نكلُّ لتستمر التغطية، ولكي لا تتوقَّف الصورة؛ فنحن الصوت والصورة معًا، ونحن الشهود والشهداء، ولن نحيد عن درب زملائنا الصحفيين الذين قتلتهم إسرائيل أمام أعين عالم أعورَ لا يرى إلّا بعينٍ واحدة.

الذين صمدوا من الشمال

شهادة الزميل الصحفي محمد الشريف
من سكان شمال قطاع غزَّة وآخر الذين خرجوا من الشمال

خلال حصار جيش الاحتلال لمخيم جباليا شمال قطاع غزَّة، بتاريخ 28/ 10/ 2024، كنت شاهدًا على إحدى أبشع الجرائم الإسرائيلية بحقِّ المدنيين الأبرياء؛ إذ استهدفت طائرةٌ مسيَّرةٌ طفلةً من عائلة المفتي كانت تحاول تعبئة مياه الشرب، فأصابتها بشكل مباشر لتفارق الحياة على الفور، في مشهدٍ مؤلم لا يُمحى من الذاكرة، ويختصر قسوة الحرب على غزَّة.

كما لا يفارق ذهني مشهدٌ آخر من ذلك الحصار؛ ففي تاريخ 16/ 11/ 2024، وضع الاحتلال عرباتٍ مفخَّخةً داخل أحد الأحياء السكنية وفجَّرها، فنسف المنازل فوق رؤوس ساكنيها. لم يتمكَّن أحدٌ من الوصول إليهم أو إنقاذهم بعدما منع الاحتلال الطواقم الطبية من دخول المنطقة،

ولا يزال كثيرون حتى اليوم تحت أنقاض منازلهم، ومنهم عائلتا السيسي وأبو الطرابيش، ليكونوا شاهدين على فظاعة ما جرى.

في اللحظات الأخيرة من الحصار على مخيم جباليا، كان مستشفى كمال عدوان يعيش أصعب أيامه، وعلى الرغم من انقطاع الإمدادات وشحّ الموارد، لم يتوانَ الطبيب حسام أبو صفية لحظة واحدة عن أداء واجبه الإنساني؛ وهذا ما رأيته بحكم قربي منه وبقائي قرب المستشفى، فظلَّ يقدِّم الرعاية للمرضى والجرحى حتى الرمق الأخير، موجّهًا نداءات متكرّرة إلى العالم من أجل التدخل الفوري لإنقاذ الأرواح المحاصرة داخل المستشفى.

ومع اشتداد الحصار الإسرائيلي على المخيم والمستشفى، واصل الدكتور أبو صفية عمله مع الطواقم الطبية في ظروفٍ قاسية، متعهّدًا ألّا يغادر المستشفى حتى آخر نفس.

عاش أيامًا وليالي صعبة، وتعرَّض للاستجواب أكثر من مرة خلال العملية العسكرية، لكنه أصرَّ على البقاء إلى جانب زملائه وجرحاه.

وعندما اقتحم الاحتلال المستشفى وأُجبر العاملون على الإخلاء بالقوة، واجه الطبيب إطلاق نارٍ مباشرٍ من الطائرات المسيَّرة الإسرائيلية، وأُصيب أكثر من مرة. وخلال اعتقاله، تعرَّض للضرب والإهانة في انتهاكٍ صارخ للقانون الدولي الإنساني، لكنه بقي رمزًا للثبات والإنسانية في وجه الموت والحصار. أمّا عن تجربتي الشخصية كصحفي مع الدكتور حسام أبو صفية، فقد كانت تربطني به علاقة أشبه بعلاقة الأب بابنه؛ كنتُ أراه في كل لحظة مثالًا للإنسانية والتفاني، إذ كان

يداوي الجرحى والمرضى بيديه، على الرغم من الظروف الصعبة وشحّ الإمكانيات داخل مستشفى كمال عدوان المحاصر.

لم يكن الدكتور حسام يعرف طعم الراحة، فكان يبقى مستيقظًا حتى يتلقَّى كلّ مريض ومصاب علاجه، من دون أن يلتفت إلى التعب أو الخطر المحدق. وعلى الرغم من الاتصالات المتكرّرة التي تلقاها من ضباط جيش الاحتلال يطالبونه بإخلاء المستشفى، كان يجيب بثباتٍ وإصرار:

"لن أغادر إلّا بعد آخر مريض، ولن أترك طفلًا أو جريحًا من دون علاج أو رعاية".

كان يتعامل مع المرضى كأنّهم أبناؤه وعائلته؛ يطمئن عليهم بنفسه، ويواسيهم بكلماته قبل دوائه.

إنها مشاهدُ لم تفارق ذاكرتي، تختصر معنى الإخلاص الإنساني في وجه القسوة والحصار.

ومن أصعب المواقف التي عشتها في إطار عملي صحفيًّا ومراسلًا مع قناة الجزيرة مباشر، تلك التي كانت أثناء الحصار الإسرائيلي لمستشفى كمال عدوان شمال قطاع غزَّة في العام الماضي.

في تلك الليلة، ارتكب الاحتلال الإسرائيلي مجازرَ مروعة في محيط المستشفى، حيث استُهدفت المنازل فجرًا بأحزمة نارية متتالية، حوَّلت المنطقة إلى بحرٍ من اللهب والركام.

وعند الصباح، بدأ الأهالي والأطباء محاولاتِ انتشال الشهداء والمصابين من تحت الأنقاض بجهودٍ ذاتية، وسط غيابٍ كاملٍ لفرق الإنقاذ والإسعاف بسبب الحصار.

كان المشهد يفوق الوصف؛ أجساد الشهداء مكدّسة، وصراخ الجرحى يملأ المكان، والوجع يعمُّ كل زاوية من المستشفى.

في تلك اللحظات، خرجتُ بمقطع فيديو عبر وسائل التواصل الاجتماعي وقلتُ حينها:

"مش قادر أوصف لكم المشهد، من هول ما أراه... أعداد كبيرة من الشهداء والمصابين داخل المستشفى".

كانت تلك الكلمات نابعةً من عمق الألم والعجز أمام هول الكارثة؛ لحظةً تختصر حجم المأساة التي عاشها قطاع غزَّة، والتي يصعب على أي إنسان أو كاميرا أن تنقلها كما هي.

أمّا عن علاقتي بالزميل أنس الشريف، مراسل قناة الجزيرة، فقد جمعتني به أولًا صلةُ القرابة كابن عم، ثم صلة الميدان والزمالة في العمل الصحفي.

عشنا معًا تفاصيل الحرب الإسرائيلية على قطاع غزَّة، وغطّينا جنبًا إلى جنب المجازر والحصار والمجاعة التي عاشها أهلنا تحت الخطر والنار، حاملين الكاميرا كصوتٍ للناس.

كان أنس حريصًا على نقل الحقيقة بأمانة ومصداقية، يصرُّ في كلِّ لحظة على إيصال رسالة الإنسان الغزيّ الذي يعاني الحرب والفقد والجوع والنزوح.

كنت أسمعه دائمًا يردِّد:

"لن نتوقَّف عن التغطية... حتى لو كلَّفنا الأمر حياتنا".

ظلَّ صوته يصدح بنداءاته للعالم حتى النفس الأخير؛ رحل أنس الشريف، لكن صوته لم يرحل.

بقي نهجه وصدقه حاضرين في كلِّ تقرير، واستمرّينا نحن على الطريق نفسه الذي آمن به، طريق الحقيقة والإنسان.

لا أحد يعلم كم من المواقف جمعتني بالزميل والأخ أنس الشريف بعيدًا عن الكاميرا وضجيج الميدان؛ كنا نجلس معًا وسط الدمار، نتبادل الحديث عن وجع الناس وعن ثقل الأمانة التي نحملها.

كان أنس يقول لي دائمًا:

"والله يا محمد الأمانة صعبة، والحمل ثقيل... هاي طريق صعبة، ومش رح أوقف التغطية حتى لو على حساب روحي، لأنها مش أغلى من روح أصغر طفل".

كان يؤمن أن رسالته أكبر من الخوف، وأن واجبه أن يبقى إلى جانب الناس مهما تكن الظروف.

أتذكَّر كلماته حين قال:

"أنا استشهد أبوي، وبيتي راح، بس مش مشكلة إحنا أحسن من غيرنا، وما دام فينا نفس رح نضل جنب الناس".

كان دائمًا يقولها بفخر وفي عينيه دمعة:

"أهلي في غزَّة تاج راسي، والله بستحقوا كل إشي... وحقهم يعيشوا مثل أفضل شعوب العالم، بس هالعالم ظالم خذلهم".

تلك الكلمات لا تفارق ذاكرتي؛ فهي تختصر إنسانية أنس وصدق رسالته، وتبقى شاهدًا على روحٍ لم تعرف إلّا الصمود والإخلاص حتى آخر لحظة.

ومن خلال تجربتي الشخصية وما واجهتُه من صعوباتٍ خلال عامين من الحرب، تعلمتُ أن العمل الصحفي في غزَّة ليس مجرّد مهنة، بل رسالة حياة.

كنتُ وما زلتُ حريصًا على نقل الحقيقة بكلِّ أمانة ومهنية ومصداقية، وأن أكون صوت المظلومين والثكالى والجرحى الذين أنهكتهم الحرب والحصار. لقد أدركتُ أن صوت الحق في غزَّة يقابله ثمنٌ من أرواحنا وبيوتنا وعائلاتنا، وأن قول الحقيقة هنا ثمنه غالٍ، لكنه واجبٌ لا نتراجع عنه.

عملتُ صحفيًّا ومراسلًا بأبسط الأدوات؛ هاتفٍ محمولٍ وميكروفون، في ظلِّ نقصٍ حادٍّ في المعدات والموارد، لكننا على الرغم من ذلك أوصلنا الرسالة، وفضحنا الجرائم، ونقلنا معاناة الناس كما هي.

عشنا أيامًا ولياليَ قاسيةً تحت القصف والحصار، كنا نأكل ممّا يأكله الناس، ونجوع كما يجوعون، وننزح معهم من حيٍّ إلى آخر، لكننا لم نتوقَّف عن العمل، ولم يهدأ فينا الإصرار على أن تبقى غزَّةُ تُروى للعالم بصوت أبنائها.

من تحت الركام إلى ضوء الكاميرا

شهادة يرويها المصور عَمرو طبش

في كلِّ حرب، هناك مَن يحمل البندقية، وهناك مَن يحمل الكاميرا؛ وفي غزَّة، الكاميرا أخطر من البندقية؛ لأنها لا تقتل، بل تكشف القاتل.

على مدار عامين من التغطية الميدانية في الحرب الإسرائيلية على قطاع غزَّة، عاش المصوِّر الصحفي عَمرو طبش ما لا يمكن لعقل أن يتخيَّله، أو لقلب أن يحتمله.

لم تكن مهمَّته مجرّدَ مهنة، بل كانت عبورًا دائمًا بين الحياة والموت؛ خطوةً تسبق القصف، وعدسةً تلتقط الحقيقة قبل أن تبتلعها النيران.

يقول عَمرو: "كنا نواجه القصف المباشر ونحن نرتدي الدرع الصحفي ونرفع الكاميرا؛ لم نتراجع، لأنّ رسالتنا كانت أكبر من الخوف. ومن أكثر الأيام التي لا تُنسى في ذاكرتي، كان الثالث والعشرون

من نوفمبر لعام 2023م؛ في ذلك اليوم، توجَّهتُ مع زملائي الصحفيين: هيثم نور الدين، وصامد أبو ضريفة، ومحمد الجحجوح، وفاطمة شبير، لتغطية قصف منزلٍ في حيِّ الشيخ ناصر شرق خان يونس. وصلنا قبل سيارات الإسعاف، كما هي عادة المصوِّرين في غزَّة؛ لأنّ اللحظات الأولى هي التي تحكي الحقيقة كما هي، بلا رتوش. لكنّ الاحتلال استهدف المكان بصاروخ ثانٍ بينما كنا بداخله، فانهار البيت المكوّن من طابقين فوق رؤوسنا".

في الخارج، شاهد الجميعُ عَمرًا للحظة قبل الانفجار، ثم اختفى.

انتشر الخبر بسرعة: استشهاد المصوِّر عَمرو طبش.

لكنّ القدر تحت الركام كان يكتب فصلًا آخر من نجاته.

يقول عَمرو: "لم أعرف كيف خرجتُ من تحت الركام؛ كنتُ مصابًا في الرأس والظهر، وأعاني ضيقًا شديدًا في التنفُّس، لكنني خرجتُ حيًّا. وعندما وصلتُ إلى المستشفى، كانت عائلتي تنتظر جثماني؛ رأيتُ في وجوههم الدموع والهلع والصدمة... كنتُ حيًّا، لكن لم تمضِ سوى شهور قليلة حتى عاد الموت ليطوف حولي من جديد.

ففي الثالث عشر من مايو لعام 2025م، كنتُ في مجمَّع مستشفى غزَّة الأوروبي بخان يونس أوثِّق لحظةً إنسانية؛ عودة الطفلة نيفين أبو دقّة من رحلة علاج مؤقتة، وهي تحمل في عينيها الأمل. كنتُ أُجري مقابلةً مع والدها حين تحوّل المشهد فجأةً إلى كابوس؛ إذ انهال أكثر من أربعين صاروخًا في محيط المستشفى، وقرب ساحة الاستقبال والطوارئ دفعةً واحدة.

لـم نسـمع صـوت الصـواريخ قبـل الانفجـار؛ شـعرتُ بـأنّ الأرض ارتفعـت بـي، فاحتضـنتُ الأطفـال بجسـدي؛ لأنّ الـدرع الصـحفي كـان يحمي صدري وظهري. التصقتُ بهم بينما كانت الشظايا تنهال حولنا؛ كان المكان جحيمًا، أمهاتٌ يصرخن، وآباءٌ يفتشون بين الدم والدخان، وسياراتُ إسعافٍ تتصادم من هول الفوضى، لقد تحوَّل المستشفى من مكان للحياة إلى مقبرة، وحينها... انقطع الاتصال بي لساعات".

عاشت عائلة عَمرو مجدّدًا رعب إعلان استشهاده، لكنه خرج من الموت للمرَّة الثانية، حيًّا، يحمل الكاميرا ذاتها التي نجت معه.

ثـم جـاءت الضـربة القاصـمة الأخـرى؛ اسـتهداف مجمَّـع ناصـر الطبي، وسقوط خمسةٍ من الصحفيين الذين عمل معهم عَمرو قبل دقائق فقط:

محمد سلامة، أحمد أبو عزيز، حسام المصري، معاذ أبو طه، ومريم أبو دقة.

يقول عَمرو: "كنتُ أول مَن تعرَّف إلى جثامينهم؛ جلستُ على أرض غرفة العمليات، محاصرًا بوجوههم المحطَّمة، أرتجف من الصدمة من دون أن تسقط دمعةٌ أمام أحد. انهرتُ من الداخل، لكن بعد ساعة واحدة فقط، عدتُ إلى الميدان؛ لأنّ التراجع خيانةٌ لمَن رحلوا، وخيانةٌ للصورة التي حملناها معًا".

وفي أصعب أيام الحرب، حين نزحت عائلته من خان يونس إلى رفح، لم يجدوا مأوى؛ كانت السماء تمطر، والأرض موحلة، والبرد قارسًا.

يقـول عَمـرو: "نـام جـزءٌ مـن العائلـة في السـيارة، بينمـا نمـتُ أنـا وشقيقي على الأرض؛ ليلتين كاملتين بلا غطاء، وعلى الرغم من ذلك، كنتُ أوثِّق قصص الناس من حولي. ومن بين كل تلك المآسي، وُلدت بداخلي مرحلةٌ جديدة، ربما هي الأعمق إنسانيًّا؛ مرحلةُ الأطفال... أطفالٌ فقدوا أطرافهم وأعينهم، وأطفالٌ خرجوا من تحت الأنقاض بلا عائلة، وأطفالٌ يموتون لأنّ المستشفى يفتقد دواءً لا يتجاوز ثمنه دولارًا واحدًا.

بدأتُ أحمل قصصهم على كتفي؛ لم أعد أصورهم فقط، بل أبحث لهم عن طريق للعلاج.

ومنذ إغلاق معبر رفح، ساهمتُ في إنقاذ أكثر من سبعين طفلًا، وتنسيق سفرهم للعلاج في دول عربية وأوروبية.

لكنني رأيتُ آخرين يموتون أمامي لأنّ الحدود كانت مغلقة، ولأنّ الحياة في غزَّة كانت محاصرة".

في خلاصة تجربته، يقول عَمرو طبش: "أنا لم أكن مجرّدَ صحفيٍّ؛ كنتُ الضحية والشاهد والناقل والحامل للوجع. واجهتُ القصف والموت والنزوح والمجاعة والإصابة وفقد الأصدقاء؛ لكنني لم أتوقَّف؛ لأنّ الحقيقة لا تموت، والرواية الفلسطينية يجب أن تُحكى على الرغم من صمت العالم".

صراع الميدان وصراع الأبوة

رواية الزميل الصحفي علم الدين صادق حول حرب الإبادة

في الثاني من ديسمبر لعام 2023م، وبعد أن جدَّدت إسرائيل القتال عقب هدنةٍ دامت ثمانية أيام، تلقَّيت اتصالًا من الدفاع المدني يُبلغني فيه بقصف منزلنا في منطقة السطر الغربي بمدينة خان يونس. كنتُ حينها على رأس عملي في مجمَّع ناصر الطبي، أتابع مشاهد الدمار والجرحى الذين يتدفَّقون بلا توقُّف.

سألني الضابط عبر الهاتف عن مكان والدتي في المنزل المدمَّر، فكاد قلبي يتوقَّف، أجبته بارتباك: "لقد أخلت المنزل قبل ساعتين فقط من القصف من دون أي تحذير".

نجت والدتي بأعجوبة، لكنّ جاراتي اللواتي كنّ حولنا استُشهدن؛ وكان ذلك من أقسى اللحظات التي مررتُ بها؛ شعورُ العجز، والنجاةُ الممزوجة بالألم.

ذهبتُ بعدها وأحضرتُ عائلتي إلى مجمَّع ناصر الطبي، ونصبنا خيمة نزوح صغيرة بين عشرات العائلات المشرَّدة، ثم اتخذتُ قرارًا موجعًا: وزَّعتُ أطفالي الثلاثة على ثلاثة منازل مختلفة لأقاربي. كنتُ أُفكِّر بمنطق الحرب لا بمنطق الأبوة؛ إن تمَّ استهدافُ أحدِ المنازل لا أفقدهم جميعًا دفعةً واحدة.

كانت تلك لحظاتٍ من الشتات الداخلي، لكن وسط هذا الانكسار كنتُ مصمِّمًا على أن أواصل رسالتي الإعلامية بعد أن أمَّنتُ عائلتي قدر المستطاع.

وفي العاشر من فبراير لعام 2024م، كانت عائلتي قد نزحت إلى رفح ولجأت إلى منزل شقيقتي، بينما بقيتُ أنا في خان يونس أتابع التغطية من مجمَّع ناصر الطبي.

وصلني اتصالٌ من زوج شقيقتي، كان صوته يرتجف وهو يقول: "قصفوا المسجد المجاور، والمنزل تضرر".

تجمَّد الدم في عروقي عندما أبلغني أن أطفالي أُصيبوا بخدوش، لكنّ ابني محمدًا – ابن الخامسة – مفقود! كان قد نزل قبل دقائق من القصف لشراء الحلوى من الدكان القريب مع ابن عمته.

خرجتُ مسرعًا من خان يونس متجهًا إلى رفح، وكلُّ دقيقةٍ كانت تمضي كأنها دهر. في الطريق، تلقَّيتُ اتصالًا آخر، وهذه المرَّة كان الخبر يحمل الحياة: "محمدٌ بخير، وابن أختك أيضًا؛ أنقذهما أحد الحلاقين وحماهما من القصف، عثرنا عليهما بعد ساعة كاملة من الفوضى والخوف".

تلك كانت بعضًا من محطاتٍ كثيرة في رحلة الحرب، محطاتٍ تصهر القلب والعقل معًا.

إنّ الصحفي الفلسطيني يعيش صراعين في آنٍ واحد: صراع الميدان، وصراع الأبوة؛ كيف تحمي عائلتك؟ وكيف تواصل عملك في نقل الحقيقة؟

وعلى الرغم من كلِّ ذلك، يبقى فينا ما هو أكبر من الخوف؛ إنها الإرادة الصلبة التي تميِّز الفلسطيني في وجه الموت؛ إرادةٌ تكتب الحقيقة، وتُكمل الرسالة مهما تكن الكلفة.

"زمن الموت"... نكتب عن وائل الدحدوح مراسل قناة الجزيرة

لم يكن وائل الدحدوح مجرّد صحفيٍّ يغطِّي الحرب، بل كان ضميرًا ناطقًا باسم غزَّة، وكاميرا تمشي على الجمر.

منذ اليوم الأول للعدوان، صدح صوته من قلب النار، متنقِّلًا بين أطلال العمارات والمستشفيات، وبين صراخ الجرحى وغبار الركام.

من سطح عمارة "الطباع" في مدينة غزَّة حيث مكتب الجزيرة، إلى مستشفى المعمداني وساحة مستشفى الشفاء، وصولًا إلى الشوارع التي كانت تشتعل بالقصف والدمار؛ ظلَّ وائل ينقل الصورة كما هي: بلا تزييف، ولا رتوش، وبكل وجعها الإنساني.

كان يدرك أن الكاميرا قد تتحوَّل في أي لحظة إلى شاهد على موته، ومع ذلك واصل بثَّه المباشر، مؤمنًا أن نقل الحقيقة واجبٌ يتجاوز الخوف. لكنّ القدر خبَّأ له ما لم يتصوَّره قلب؛ ففي لحظة وهو على الهواء مباشرةً، يتحدَّث للملايين حول العالم عن مشاهد القصف، وصله الخبر الذي شطر قلبه نصفين: عائلتك قُصفت.

ركض نحو المكان، فوجد المشهد الذي لم يتهيأ له أيُّ أبٍ ولا أيُّ إنسان؛ زوجتُه، ونجلُه محمود، وابنتُه شام، وحفيدُه الرضيع، وعددٌ من أقاربه؛ جميعهم بين الشهداء وعشرات الجرحى. وقف مذهولًا للحظات، ثم انهمرت دموعه وهو يردِّد بصوتٍ متهدِّج: "بينتقموا منا في الأولاد... معلش".

كانت تلك الجملة صرخةَ غزَّة كلها؛ خرجت من بين أضلاع رجل فقد بيته وذويه، لكنه لم يفقد رسالته. فبعد دفن أحبَّته في الصباح، عاد وائل إلى الشاشة؛ لم تهزّه الفاجعة، ولم تُسكت الكاميرا التي كانت شاهدةً على كل جريمة.

وحين اشتدَّت الحرب أكثر، اضطر إلى النزوح مشيًا على الأقدام نحو الجنوب، حالُه حالُ آلاف العائلات. استقرَّ لبعض الوقت في مستشفى الأقصى بدير البلح، ثم في مستشفى ناصر بخان يونس،

مواصلًا التغطية على الرغم من الجروح والدماء والدموع التي لم تجف قط.

وفي إحدى المهام الميدانية، خرج مع زميله المصوِّر سامر أبو دقّة وطاقم الدفاع المدني لتوثيق عمليات الإنقاذ في مدرسة فرحانة بخان يونس. كانت الدبابات الإسرائيلية تُحيط بالمدينة، والغارات تغطِّي معظم الأماكن؛ وفجأةً... سقط الصاروخ.

استُشهد ثلاثةٌ من مسعفي الدفاع المدني، وأُصيب وائل بجراح في يده ورجله، ونجا بأعجوبة من موت محقّق، فيما ظلَّ سامر ينزف في المكان لأكثر من ست ساعات؛ جرت خلالها اتصالاتٌ مع جيش الاحتلال عن طريق اللجنة الدولية للصليب الأحمر كي يُسمح بدخول سيارات الإسعاف لانتشاله، وعندما جاءت الموافقة، عُثر عليه شهيدًا.

وعلى الرغم من الألم، عاد وائل للظهور على الهواء ويدُه مُضمَّدةٌ بعد تشييع رفيق دربه سامر؛ كأنه يقول للجميع: إن الجرح لا يوقف الحقيقة، وإن الصوت لا يموت.

بدا كمَن يخرج من تحت الركام ليقول للعالم: "نحن هنا، ما زلنا نروي الحكاية".

لكنّ المصائب في غزَّة لا تأتي فرادى.

بعد أسابيع، تلقَّى وائل نبأ استشهاد ابنه الأكبر حمزة؛ وهو الآخر صحفيٌّ ومساعدٌ لوالده، ارتقى برفقة زميله مصطفى ثريا إثر استهداف سيارتهما في طريق رفح.

كان الخبر هذه المرَّة موجعًا بحجم أوجاعه كافة؛ فحمزة لم يكن مجرّد ابن، بل كان امتداد الرسالة، وتلميذ المدرسة الصحفية التي أسَّسها والده.

وعلى الرغم من الصدمة، واصل وائل العمل؛ ظلَّ يظهر على الشاشات، يتحدَّث عن غزَّة، وعن الأطفال، وعن البيوت المهدّمة، وعن زملائه الذين سبقوه إلى السماء؛ إلى أن قرَّرت قناة الجزيرة، بالتنسيق مع جهاتٍ دولية، إخراجه مؤقتًا من القطاع لاستكمال العلاج.

دومًا، عند مغادرتي مكان عملي في برج الشوا والحصري وسط غزَّة، كنتُ أعتاد أن أمرَّ أولًا على الزميل سامر أبو دقّة؛ أقدِّم له التحية داخل مكتب قناة الجزيرة، فنخرج بعدها معًا لتناول الغداء أو السهر، نكمل أحاديث اليوم الطويل، وأحيانًا كنتُ أبيت في منزله؛ حيث كنتُ أشعر بدفء الأخوّة وبساطة الروح.

في أحد الأيام، توجَّهتُ إلى مكتب قناة الجزيرة، وهناك التقيتُ بسامر، وكان الزميل وائل الدحدوح حاضرًا أيضًا.

دار بيننا حديثٌ طويل امتزج فيه العمل بالحياة، والهمُّ المهني بالابتسامة الصادقة.

كانت لحظاتٍ مليئةً بالفرح؛ يتحدَّث فيها وائل بحماسٍ عن تجهيزات زفاف نجله الأكبر حمزة - الذي ارتقى خلال الحرب شهيدًا - يصف البيت الجديد، وجمعة الأهل، وأجواء الفرح التي ملأت قلبه حتى آخر لحظة.

تلك الجلسة بقيت في الذاكرة كأنها ومضة حياةٍ قبل العاصفة.

التقينا بعد ذلك في أكثر من ميدان من ميادين العمل؛ بين الخطر والغبار وصوت القصف، وكان وائل، كعادته، يصغي إلى رواياتنا الميدانية باهتمام، ويعيش وجع الناس كأنّه واحدٌ منهم. كان وائل صورةً حقيقيةً للصحفي الذي لا يفصل بين المهنة والإنسانية، وبين الواجب والمشاعر.

واليوم، حين أستعيد تلك اللحظات، أوقن أن الفرح الذي تحدَّث به وائل عن زفاف ابنه، والابتسامة التي تبادلناها في مكتب الجزيرة، كانت آخر رسائل الحياة قبل أن يغمرها ضوءُ الشهادة.

غادر الدحدوح غزَّة جسدًا، لكنه ترك فيها صدى صوته، ورائحة الكاميرا التي شهدت كل شيء.

لم يصمت خارجها، بل واصل الحديث عن وجعها، وعن الإعلاميين الذين يُستهدفون لأنهم ينقلون الحقيقة. تحوَّل وائل إلى رمزٍ عالميٍّ للصحافة في زمن الإبادة، وإلى نموذج يُدرَّس في الجامعات؛ كصحفيٍّ لم يساوم، ولم يختبئ خلف المكاتب، بل عاش الميدان بكل تفاصيله.

ترك للأجيال درسًا خالدًا:

أن الصحافة ليست مجرّد مهنة، بل رسالةٌ تُكتب بالعرق والدم، وأن الكلمة قد تكون آخر ما تبقَّى حين يصمت العالم كلّه.

* * *

وبحسب بيانات المكتب الإعلامي الحكومي ونقابة الصحفيين الفلسطينيين، استُشهد (254) صحفيًّا وصحفية منذ السابع من أكتوبر لعام 2023م، في حصيلةٍ غير مسبوقة في تاريخ الصحافة العالمية.

وكان من بين الضحايا (27) صحفية، إضافة إلى (433) مصابًا و(48) معتقلًا من الصحفيين، سقطوا جميعًا خلال تغطيتهم لحرب الإبادة على القطاع.

الفصل التاسع

مراسلات تحت النار

في أشدّ الأوقات قسوة، عندما غابت الإشارة عن الهواتف النقالة والأرضية، وانقطعت شبكة الاتصالات تمامًا عن غزَّة، لم يتوقَّف العمل الصحفي. لم يكن الصحفي مجرّد ناقل خبر، بل كان صلةَ وصلٍ بين الحياة والموت، بين الأمل واليأس، وبين مَن يستغيث ومَن يستطيع المساعدة.

منذ بداية عام 2024م وحتى شهور الصيف المشتعل، عايشتُ عشرات القصص التي لم تُروَ بعد؛ كانت المكالمات القليلة التي تصلُ عبر قنواتٍ بديلة ومجهودٍ شخصي، بمثابة خيطِ نجاةٍ لإنقاذ أرواحٍ علِقت تحت الركام أو نُزِفت في العراء.

ففي الرابع عشر من يناير لعام 2024م، فتحتُ قناةَ اتصال نادرة مع الهلال الأحمر في رام الله، في وقتٍ كانت فيه كل شبكات غزَّة صامتة، من أجل إنقاذ طاقم الاتصالات الفلسطينية الذين غُدر بهم في خان يونس على الرغم من تنسيقهم المسبق مع الاحتلال؛ بقوا أكثر من أربع وعشرين ساعة تحت القصف، ولم تتمكَّن الطواقم من الوصول إليهم إلّا جثامينًا متفحمة في صباح اليوم التالي.

وبعدها بيوم واحد فقط، في الخامس عشر من يناير، ساعدتُ الجريح السيد محمود الزعانين على الانتقال من مستشفى الشفاء إلى ناصر، في عملية معقّدة عبر التنسيق الإنساني، وسط خطرٍ ميداني حقيقي وانفصال غزَّة بين شمالٍ وجنوب.

كانت الرحلة أقربَ إلى المستحيل لكنها نجحت، قبل أن تُمنع لاحقًا مثل هذه التحركات تمامًا.

وفي الثلاثين من يناير لعام 2024م، جاءت واحدةٌ من أقسى المناشدات: محاولة إنقاذ الطفلة هند رجب، التي بقيت وحيدةً تصارع الموت بعد قصف عائلتها في مدينة غزَّة، وتحديدًا قرب محطة فارس المجاورة لمجمَّع الوزارات والجامعة الإسلامية.

انقطع الاتصال بطواقم الإنقاذ التابعة للهلال الأحمر التي خرجت نحوها، ولم يعرف أحدٌ مصيرهم إلّا بعد أيام طويلة من الخوف والدموع، حتى تمكَّن الإسعافُ أخيرًا من الوصول إليهم؛ ليفجع العالم بأنّ جميعهم قد ارتقوا شهداء، بما فيهم الطفلة التي كانت تستغيث بصوتها عبر اتصال جرى مع طواقم الهلال الأحمر وذويها.

أمّا في التاسع عشر من أغسطس لعام 2024م، فقد كتبتُ بيدي ودموعي رسالةَ استغاثةٍ حول صديقي ورفيقي إبراهيم محارب، الذي ارتقى في الميدان بينما كنتُ أتابع لحظةً بلحظة تحركات الطواقم التي حاولت الوصول إليه وسط النار والدبابات. لم يكن إبراهيم مجرّد شخص عادي، بل كان عونًا لعائلتي في أحلك الظروف؛ رحل وبقي أثره في كلِّ خيمة، وفي كلِّ كأس ماء، وفي كلِّ دعاء قدَّمه لأطفالي وعائلتي.

ثم جاء الثالث والعشرين من أغسطس لعام 2024م، ليفتح جرحًا جديدًا مع عائلة أبو هدروس، الذين فقدوا عشرةً من أبنائهم تحت الركام قرب مدينة حمد السكنية غرب خان يونس. تواصلتُ حينها مع الجهات المختصة لإيصال مناشدة العائلة، لكنّ الردَّ كان واحدًا: "المنطقة مغلقة أمنيًّا"؛ وبعد يومين فقط، تمكّن المسعفون من انتشالهم جميعًا... شهداء.

وفي الثاني من أكتوبر لعام 2024م، كنتُ على تواصل مباشر مع فتاة مصابة من عائلة الزرد، التي قصفت طائراتُ الاحتلال منزلهم شرق خان يونس. كانت تحاول وقف نزيف الجرحى بيدها المصابة؛ بلا أدوات، ولا إسعاف، ولا كهرباء. نقلتُ نداءها كاملًا حتى وصل إلى مَن يمكنه المساعدة، لكنّ الفاجعة كانت أسرع؛ إذ أخرجوا معظم أقاربها شهداء من منطقة حيّ المنارة جنوب خان يونس بقطاع غزَّة.

لم تكن هذه النداءات مجرّد قصص حرب، بل كانت شواهد على معنى الإنسانية في أحلك الأوقات؛ ومنها قصة السيدة المسنَّة أميرة الحلاق، المرأة المصابة بالشلل النصفي، التي ناشدت العالم من سريرها في المستشفى الأوروبي؛ نقلتُ صوتها بصدقٍ حتى وصل إلى المعنيين، وبالفعل استُجيب للنداء وسافرت لاحقًا لتلقِّي العلاج في مصر.

وفي نهاية ديسمبر لعام 2023م، كتبتُ قصة الممرّض محمود مطر الذي فَقَدَ قدميه أثناء عمله في المستشفى الإندونيسي، وزوجته الصحفية سلسبيل التي تحوَّلت إلى ممرِّضةٍ له داخل مقرّ إقامته على سرير الشفاء

بالمستشفى الأوروبي. نشرتُ قصته فحرَّكت قلوب الناس والجهات، وسافر لاحقًا للعلاج في دولة قطر بفضل الضغط الإنساني والإعلامي المشترك، لكنه غادر غزَّة وقد ترك خلفه قدميه.

وهنا أضع شهادةً حيَّةً من الحكيم محمود جميل مطر الذي يخضع للعلاج بعد بتر أطرافه السفلية:

أنا الحكيم محمود، عملتُ خلال الحرب على علاج المصابين بشتَّى أنواع الإصابات. وأثناء خروجي من المستشفى متجهًا إلى البيت، تمَّ استهدافي؛ فأُصبتُ إصاباتٍ بالغة: كسورٌ معقَّدة في مفصل الحوض، وشظايا عديدة في أطرافي السفلية، وكان ما يربط أطرافي السفلية بجسدي مجرّد بقايا أوتارٍ وجلد.

عانيتُ في الحصول على رعاية طبية وصحية نظرًا للحصار الذي أُطبق علينا في المستشفى الإندونيسي بعد إصابتي بعدَّة أيام؛ حيث إنني أُصبتُ بتاريخ الثالث عشر من نوفمبر لعام 2023م. خضعتُ لعملية عاجلة بشقِّ الأنفس، وتمَّ تركيب بلاتين وتثبيت العظم؛ حيث كان هناك ثلاثُ قطع بلاتين في أطرافي السفلية، وكان الهدف الوحيد من هذه العملية هو تخفيف الألم.

وبعدها بأيام، حاصرنا جيش الاحتلال في المستشفى بعد قصف عدَّة غرف للمرضى، وأطلق النار بشكل عشوائي على مباني المستشفى كافة؛ تمكَّنتُ من الانتقال من شمال غزَّة بعد حصار دام أربعة أيام، عبر الصليب الأحمر متوجهين إلى جنوب القطاع داخل مستشفى غزَّة الأوروبي.

كان النقل غيرَ صحيٍّ، ولا يراعي خطورة حالتي بسبب الوضع الميداني، ممّا أدّى إلى تدهور وضع أطرافي السفلية بشكل متسارع. في المستشفى الأوروبي، كنتُ أخضع يومًا بعد يوم لعمليات تنظيفٍ وتثبيتٍ وإزالة عظم؛ وحتى قبل سفري بيومين، كنتُ أخضع لعملياتٍ متتالية ومنتظمة، إلى أن تفاقم الوضع، فأصبح زملائي يُجرون لي العمليات الجراحية - وإن كانت صغرى - على سرير الإصابة داخل الغرفة، نظرًا لانشغال غرف العمليات بالكامل.

حينها، أخبرني الأطباء أن هذا أقصى ما يمكن فعله، وأن الحفاظ على أطرافي يتطلَّب سفرًا عاجلًا، وإلّا فإنّ بتر الطرفين بات قاب قوسين أو أدنى.

بذلت زوجتي كلَّ الجهود من أجل الحصول على (نموذج رقم 1) الذي تصدره وزارة الصحة الفلسطينية كخطوةٍ أولى لإجراء التحويل العلاجي للخارج، وانتظرنا أسبوعين على أمل أن نتمكَّن من مغادرة غزَّة.

استمرَّت جهودُ زوجتي في السعي لسفري، حتى تواصلنا مع الزميل الصحفي مثنّى النجار، فبما أنه زميلها لم يتأخَّر دقيقةً واحدة. أتذكَّر أننا تواصلنا معه بعد شهر من إصابتي، وتحديدًا في التاسع عشر من ديسمبر لعام 2023م.

كان مثنّى صوتنا الذي نطقنا به؛ حيث أنشأنا فيديو مناشدة عبر صفحته للسفر العاجل، فانتشرت المناشدةُ ووصلت إلى أصحاب القرار عبر منصة فيسبوك.

كنا وقتها في سباق محموم مع الزمن: إمّا البتر وإمّا إنقاذ الحياة؛ لكنّ السفر تأخَّر لمدة شهر كامل من تاريخ إصدار المناشدة، فصار البترُ هو الخيار الوحيد لإنقاذ حياتي، وتمَّت العملية في الثالث والعشرين من ديسمبر لعام 2023م.

استمرَّ الأطباء بعد ذلك في محاولة إنقاذ مفصلي، لكنهم أبلغوني بصراحةٍ مُرَّة: إذا ساءت حالة المفصل، سنضطر إلى بتر طرفك من الأعلى... من الجذر.

بتاريخ الرابع عشر من يناير لعام 2024م، صدر اسمي واسم زوجتي وابني في قوائم السفر، وانتقلنا في اليوم التالي إلى مصر حيث مكثنا أربعة أيام، ومن هناك بزغ النور؛ بدا أن هناك أملًا حقيقيًّا للعلاج، فما زالت الشظايا تسكن جسدي؛ إحداها تزن 180 غرامًا، كانت اخترقت فخذي واستقرَّت في منتصف ظهري الأيمن، إضافةً إلى كسر في مفصلي الفخذي الأيمن، والتهابات شديدة مقاومة للمضادات الحيوية.

نُقلت بعدها إلى دولة قطر، حيث شرع الأطباءُ هناك – بعد عمليات عديدة وكثيفة وكبرى – في رحلة علاجي؛ أزالوا الشظية، واستأصلوا المفصل وزرعوا مفصلًا مؤقتًا مغلَّفًا بمضادٍّ حيوي لأربع مرات.

في غزَّة، كان كلُّ شيء يسابق الزمن، ولولا لطف الله ثم استجابة الزميل الصحفي مثنّى النجار لطلبنا، ما كنا وصلنا إلى هذه المرحلة. دعائي له لا ينقطع كلما تذكَّرتُ حالتي في غزَّة، ولطالما أتذكَّر نفسي هناك... تحت النار والانتظار.

* * *

كلُّ هذه القصص كانت تمرُّ من بين أنقاض الحرب؛ تحملها رسائلُ مكتوبةٌ على عجل، أو مكالمةٌ من هاتفٍ واحدٍ يعمل ببطارية احتياطية. لم يكن في الأمر بطولةٌ بقدر ما كان واجبًا إنسانيًّا؛ أن نحاول إبقاء الصوت الفلسطيني حيًّا، ولو من قلب الصمت.

الفصل العاشر

حين صمتت المدن
«رفح... آخر الملاذات»

لم تكن حرب الإبادة التي اجتاحت قطاع غزَّة حربًا على البشر فقط، بل امتدت لتطال الحجر والشجر، وكلُّ ما ينبض بالحياة في هذا المكان الصغير الموجوع.

فقد تحوَّلت المدن إلى رماد، والبيوتُ إلى أطلال، والطرقاتُ إلى ذاكرة مكسّرةٍ تروي فصولًا من الوجع.

ومن بين تلك المدن، كانت رفح شاهدًا على واحدة من أقسى المراحل؛ إذ لم تَعُد فقط موطنًا لأهلها، بل غدت ملاذًا لآلاف النازحين الذين فرّوا من جحيم العمليات البرية التي اجتاحت خان يونس في الخامس من ديسمبر الماضي. كانت عائلتي - إلى جانب الصحفيين وعوائلهم - واحدةً من تلك العائلات التي اضطرَّت إلى مغادرة خان يونس ونصب خيمتها في رفح، هربًا من أحزمة النار التي أحكم بها الاحتلال حصاره على المدينة.

في أيام قليلة، امتلأت رفح بالخيام حتى ضاقت بالناس، وتبدَّلت ملامحها إلى مدينة من القماش والغبار.

كان المشهد قاسيًا؛ فالماء شحيح، والغذاء محدود، والمرض ينتشر بين الأطفال والنساء وكبار السن.

ومع مرور الوقت، كانت آليات الاحتلال تتوغَّل في عمق خان يونس حتى طوّقت مستشفى ناصر الطبي، لتبدأ مرحلة هي الأطول والأصعب من العمليات البرية، وسط ضرباتٍ متبادلة ومشاهد مقاومة لا تُنسى. لم يكن التنقل بين خان يونس ورفح ممكنًا إلّا لأيام معدودة عبر طريق البحر، قبل أن يُغلق هو الآخر، لتغدو رفح محاصرة بالكامل.

عاشت أسرتي – كغيرها من مئات الآلاف – في ظروف لا تُطاق، بين البحث عن جرعة ماء أو رغيف خبز، وبين أصوات الطائرات والمدافع التي لا تهدأ.

في تلك الأثناء، تمدَّدت العمليات العسكرية شمالًا لتطال مدينة غزَّة وجباليا، وصولًا إلى محاصرة مستشفى الشفاء، ما أجبر عشرات الآلاف على النزوح نحو الجنوب؛ فازدادت أعدادُ النازحين أضعافًا، وتفاقمت المأساةُ الإنسانية. أمّا على صعيد التغطية الإعلامية، فقد كانت من أصعب الفترات التي مررنا بها كصحفيين؛ إذ انقطعت الاتصالاتُ لأيام طويلة، وغابت المعلوماتُ عن الميدان، ومَن حاول البقاء قرب الأحداث كان مصيرُه إمّا الاعتقال وإمّا الاستهداف.

لا أنسى زميلي مؤمن الحلبي، الذي كان يرافقني في العمل بإذاعة صوت القدس، وكان متواجدًا في مجمَّع الشفاء قبل أن يتمَّ اعتقاله من قِبل قوات الاحتلال.

غيابه ترك فراغًا كبيرًا، ليس فقط في الميدان، بل في قلوب كلّ مَن عرفه. وفي ظلِّ غياب الصحفيين والمراسلين، ارتكب الاحتلال جرائمه بعيدًا عن عيون العالم وعدسات الكاميرات... وهذه واحدةٌ من الروايات التي كنتُ شاهدًا عليها.

رواية إسحاق الداعور كان أحد أهم مصادري في شمال غزَّة

في الأيام الأولى من العدوان على قطاع غزَّة، وتحديدًا في أحداث السابع من أكتوبر لعام 2023م، كنتُ أعمل مصوِّرًا ميدانيًّا بهاتفي المحمول؛ أنقل تفاصيل ما يجري لحظةً بلحظة، بالشراكة مع الزميل الصحفي مثنّى النجار، حيث كنا على تواصل دائم طوال فترة الحرب في شمال القطاع.

بدأت الاستهدافاتُ العنيفة على مدينة بيت حانون، فوثَّقتُ بالأدلة المصوَّرة الأحزمة النارية الكثيفة التي أطلقها جيش الاحتلال بجنون غير مسبوق في الثامن من أكتوبر. كنتُ حينها أسكن في أبراج الندى، القريبة من معبر إيرز شمال شرق بيت لاهيا.

لم يمضِ وقتٌ طويل حتى استهدف جيشُ الاحتلال الشقق السكنية في الأبراج، ممّا أجبر الأهالي على النزوح وإخلاء المكان وسط حالة من الذعر والخوف.

بقيتُ هناك أربعة أيام أوثِّق ما يجري على الرغم من الخطر، حتى تلقَّيتُ اتصالًا من جيش الاحتلال نفسه، يطالبني فيه بمغادرة المنطقة

خلال نصف ساعة فقط، أنا وعائلتي، وإلّا فسيتم قصف المكان فوق رؤوسنا.

خرجنا مسرعين تحت القصف الكثيف تاركين خلفنا كلَّ شيء، واتجهنا نحو مدينة بيت لاهيا.

وفي اليوم ذاته الذي غادرنا فيه، تمَّ تدمير جميع الأبراج السكنية بالكامل؛ كنتُ حينها قد وثَّقتُ المشهد من بيت لاهيا وأرسلتُه إلى الزميل مثنّى النجار، وكانت تلك أولى الاستهدافات الواسعة للأبراج السكنية.

منذ ذلك اليوم، بدأت المجازر تتوالى في بيت لاهيا وشمال غزَّة، ورأينا بأعيننا مشاهد كأنها من أهوال يوم القيامة؛ منازل تُقصف على رؤوس ساكنيها من دون أي إنذار، صرخاتُ الأطفال والنساء تحت الركام، والدماءُ تغمر الشوارع. كنا نغامر بأنفسنا لتوثيق الجرائم، وفي الوقت نفسه نساعد في إخراج الشهداء والمصابين من تحت الأنقاض، في ظلِّ غياب سيارات الإسعاف وصعوبة التنقل نتيجة الدمار الشامل.

كان الزميل مثنّى يقول لي دائمًا: "تغطية الشمال مسؤوليتك، لكن دير بالك، بدون مخاطرة".

لكن في الحقيقة، كان الخطر يسكُن كلَّ مكان؛ فلا أمان هناك ولا لحظة سلام.

وفي السابع عشر من يناير لعام 2024م، استهدف جيشُ الاحتلال شقيقي وخالي بصاروخ استطلاع أثناء تفقدهما المنزل غرب مدينة غزَّة؛ فاستُشهدا على الفور. حينها، انهارت قواي وتوقَّفتُ عن التغطية لأيام ونحن نستقبل المعزّين. وبفضل الله، ثم بدعم وتشجيع من الزميل مثنّى

النجار، عدتُ بعد أسبوع لأكمل التغطية على الرغم من الجوع والخوف والحصار.

كانت الحياة شبه مستحيلة؛ جوعٌ وعطش، ونقصٌ حاد في الغذاء، ووجبةٌ واحدة في اليوم لا تتعدَّى طبقًا من الخُبّيزة التي كنا نجمعها من بين الركام ومن أطراف الأراضي المدمرة.

وفي الرابع عشر من أكتوبر لعام 2024م، وأثناء تغطيتي للأحداث من مستشفى كمال عدوان شمال غزَّة، وصل بلاغٌ إلى رجال الإسعاف عن مجزرة جديدة في مركز إيواءٍ بمخيم جباليا. رافقتُ طواقم الإسعاف لتوثيق المشهد ونقل الضحايا، وبعد خروجنا من المخيم، استهدفتنا طائرةٌ مسيّرة بصاروخ مباشر بجانب سيارة الإسعاف، ما أدَّى إلى إصابة الجميع، بمَن فيهم أنا.

ومع مرور الأيام، استمرَّ القصف من دون توقُّف حتى حاصرنا جيشُ الاحتلال في بيت لاهيا تحت وابل من النيران؛ أرسلوا طائرات "كوادكابتر" صغيرة تنادي علينا بتسليم أنفسنا، مهدّدين بقصفنا واصفين إيانا بـ "الإرهابيين".

وفي الثاني والعشرين من أكتوبر لعام 2024م، اعتُقلتُ على يد جنود الاحتلال في محيط المستشفى الإندونيسي، حيث تـمَّ التحقيقُ معي وإهانتي بألفاظ بذيئة، قبل أن يُفرجوا عني ليلًا مع أمرٍ قاطع بمغادرة المنطقة والتوجه جنوبًا.

بعد رحلة شاقة مليئة بالرعب، وصلتُ إلى مدينة غزَّة، مثقلًا بالذكريات التي لا تُنسى، وبصورٍ لن تُمحى من الذاكرة.

آلة الحرب المدمرة

واصلت آلةُ الحرب تدمير المستشفيات؛ فاستُهدف مستشفى كمال عدوان والإندونيسي في الشمال، والشفاء والرنتيسي في مدينة غزَّة، والتركي في الزهراء، ولم يبقَ يعمل سوى مستشفى غزَّة الأوروبي الذي تحوّل إلى الملاذ الأخير للجرحى والمنكوبين.

لم تنتهِ معاناة خان يونس مع توقُّف العمليات؛ إذ عاد الجيش الإسرائيلي لشنِّ هجمات متكرّرة على المدينة ثلاث مرات متتالية، قبل أن يبدأ عمليته الأوسع ضد رفح في مارس لعام 2025م، وتحت وطأة القصف، اضطرَّ مئات الآلاف من النازحين إلى الهروب مجدّدًا نحو خان يونس والمحافظة الوسطى، في رحلة أخرى من النزوح والألم.

كانت عائلتي بين مَن بقوا لبعض الوقت في رفح، قبل أن تُستهدف المنطقةُ التي احتموا فيها بعدة غاراتٍ جوية ألحقت دمارًا كبيرًا في المكان. وعلى الرغم من التحذيرات والنداءات الدولية، مضت إسرائيل في عمليتها البرية بذريعة "توسيع المنطقة الأمنية"، ما أدَّى إلى إغلاق معبر رفح وفرض حصارٍ خانق على القطاع بأكمله.

ومع مرور الأيام، تفاقمت أزمةُ الجوع، وانتشرت حالاتُ سوء التغذية بين الأطفال والمسنين، بينما بقيت المساعداتُ ممنوعةً من الدخول؛ كأنّ غزَّة تُعاقَب لأنها ما زالت في قيد الحياة. تسبَّبت هذه العملياتُ المتلاحقة في تعطيل التغطية الإعلامية وتوثيق الجرائم، وارتُكبت خلالها مئاتٌ من جرائم الإبادة التي أزالت آلاف الأسر من السجل المدني، ومسحت ملامحها من الوجود.

مرَّت غزَّة خلال الحرب بفترتي هدنة؛ الأولى في نوفمبر لعام 2023م، والثانية في عام 2025م، حتى جاء الاتفاقُ الأخير برعاية الرئيس الأمريكي دونالد ترامب، ليمنح الأهالي فسحةً قصيرةً من الهدوء، لكنها لم تخلُ من الاستهدافات اليومية التي ما زالت تحصد أرواح الأبرياء.

ذلك الهدوء كان مهلةً مؤقتة بين فصلين من المعاناة، لتبقى غزَّة جرحًا مفتوحًا في وجه العالم، وشاهدًا حيًّا على حربٍ لم تُبقِ ولم تذر.

في الثالث عشر من مايو لعام 2025م، دوَّت انفجاراتٌ عنيفة هزَّت أرجاء مدينة خان يونس إثر غارات جوية استهدفت مجمَّع مستشفى غزَّة الأوروبي، أحد آخر المراكز الطبية العاملة في قطاع غزَّة آنذاك.

أسفرت الضربة عن استشهاد العشرات، بينهم مرضى ومصابون ونازحون لجأوا إلى المستشفى بحثًا عن الأمان.

جاء هذا الهجوم – كما ادَّعى الاحتلال – في محاولة لاستهداف القيادي في كتائب القسّام محمد السنوار وعددٍ من القيادات العسكرية، مدَّعيًا أن "العملية استهدفت مجمَّعًا مسلحًا تحت مدرسة مدنية مجاورة". كان وقعُ الغارات صادمًا؛ ليس فقط لأنها أصابت مركزًا طبيًّا، بل لأنها كانت الضربة التي كسرت ما تبقَّى من منظومة الرعاية الصحية في جنوب القطاع.

ساد الهلعُ المكان، وبدأت الطواقمُ الطبية بالفرار وسط تصاعد الدخان والنيران، تاركين خلفهم أجهزةً ما زالت تعمل ومرضى عاجزين عن الحركة؛ كذلك غادر النازحون الذين احتموا في ساحات

المستشفى، والصحفيون الذين حاولوا توثيق ما جرى، بعدما بات المكانُ تحت خطر مباشر، وغابت كاميراتُ التغطية كما غاب الضوءُ عن المدينة.

ذلك اليوم كان نقطةَ تحوُّلٍ في مسار الحرب؛ إذ لم يَعُد هناك مستشفى يعمل بكامل طاقته، ولا مكانٌ آمنٌ للجرحى أو للمراسلين... لقد قُصفت الحياةُ في آخر معاقلها.

وهذه شهادةٌ من الصحفي محمد الحداد على "رحلة الموت" كما أطلقنا عليها:

بدأت الساعاتُ الأخيرة تطرق أبوابنا داخل مجمَّع ناصر الطبي؛ حيث غادرت جميعُ الطواقم الصحفية ولم يبقَ إلّا القليل. جاء الاتصالُ من قِبل مخابرات الاحتلال إلى أحد الزملاء بضرورة الإخلاء فورًا لآخر سيارة بثٍّ مباشر في المجمَّع. تعالت الأصواتُ وبدأ الضجيج، وأصواتُ القذائف تقترب منا شيئًا فشيئًا؛ غادرت السيارةُ وهي تحمل المعدات، وبقيتُ أنا وزميلان نصارع الوقت، فكلّ الاتجاهات أصبحت محاصرةً بدبابات الموت... كيف سننجو؟

جهَّزنا جزءًا من المعدات التي نتمكَّن من حملها على أكتافنا، ولم تكن هناك أي وسيلةُ نقل. كانت الأصواتُ تعلو في المكان، وهناك حالةُ تخبُّطٍ بين الأطباء والممرضين؛ الجميع كان يترقَّب تحركاتنا، كوننا الأمل في بقائهم وتأدية واجبهم. غادرنا للمرَّة الأولى وقلوبنا تعتصر ألمًا، وصلنا منتصف الطريق، وإذا بالقذائف تتساقط حولنا والشظايا تتطاير فوق رؤوسنا.

سمعنا صوتًا يقول إن الدبابات أغلقت الشارع الذي نسلكه، بدأنا نترقَّب المشهد؛ وجوهٌ غاضبة، الأنظارُ تلاحقنا، والناسُ حولنا تتساءل: ماذا سنفعل؟

فكان القرار بالعودة إلى مجمَّع ناصر... "واللي كاتبه ربنا بصير".

عدنا إلى نفس المكان، لم يبقَ أحد، أصبحنا وحدنا ننتظر الموت في أيِّ لحظة. تلقينا اتصالًا من أحد الزملاء يخبرنا عن فتح الشارع وانسحاب الدبابات إلى منطقة أخرى، وأنه علينا المغادرة الآن.

غادرنا كما فعلنا في المرَّة الأولى، وصلنا إلى مفترق جمعية الهلال الأحمر بحيّ الأمل في خان يونس، وإذا بدبابة إسرائيلية تطلق النار والقذائف بشكل مكثف.

كيف سنعبر المفترق؟ هناك الكثير من الأهالي يريدون النزوح، فما هو القرار؟ الموت يقترب؛ نعود ونُحاصر أم نكمل الطريق؟

الوقت ينفد، نريد قرارًا، والسؤال: مَن سيتحمَّل مسؤولية هذا القرار؟

ساد الصمتُ، وإذا بأحد الزملاء رفقتي يقول: "نشق الطريق واحدًا تلو الآخر وبسرعة، واللي كاتبه ربنا بصير، لا توجد خيارات أخرى".

بدأنا هذه المهمة، ونجحنا في المرور وسط طلقاتٍ نارية وقذائف عشوائية تنهال على المكان بشكل كبير جدًا. لم نكن نسمع سوى صرخات الأطفال حولنا وبكاء الأمهات خوفًا على أبنائهنَّ. الجميع من خلفنا بدأ يفعل ما فعلنا؛ فإمّا الحصار، وإمّا العبور في هذا الطريق المليء بالموت.

سرنا معًا والحمل ينهك أكتافنا، وبدأنا نبتعد عن الموت إلى حدٍّ ما. الطريق لم يكن سهلًا؛ على اليمين كبارُ سنٍّ منهكون، ولفت انتباهنا مسنٌّ على كرسيٍّ متحرك تسحبه أسرته وقد فارق الحياة، ونساءٌ وأطفال وشبابٌ حفاة الأقدام يحاولون النجاة.

وصلنا إلى شارع الرشيد بعد رحلة من الموت، فسجدنا شكرًا لله على أن منحنا النجاة، ثم انتقلنا إلى مدينة رفح في أقصى الجنوب، وبدأنا نُكمل المسيرة التي حملناها في دمائنا وأخلاقنا التي تعلَّمناها من هذه المهنة الشاقة. وبدأنا فصلًا جديدًا من فصول الموت البطيء؛ فلم نسلم هناك أيضًا من الموت، وكانت حكاياتٍ ممتلئة بالأحداث التي عشنا فصولها المريرة.

هذه الروايات كانت قاسية، وعلى الرغم من أوضاع الناس، كانت هناك حالةُ إصرارٍ لم يسبق لها مثيل على البقاء من بعض الأهالي الذين يرفضون الخروج من أماكنهم. ومنها رواية الشاهد عبادة حلمي أبو عنزة من بلدة عبسان الجديدة شرق خان يونس، وهو أحد مصادري الذين كانوا بين الناس، حيث يقول:

بلدتي عبسان الجديدة، تلك المنطقة الحدودية الواقعة شرق محافظة خان يونس، كانت من أكثر المناطق دمارًا خلال العدوان، حتى صُنِّفت من الأماكن المنكوبة.

كنا نتلقَّى التحذيراتِ وإخطارات الإخلاء مرارًا من جيش الاحتلال، لكننا لم نغادر؛ تمسَّكنا ببيوتنا، ببقايانا، وبذاكرتنا هناك. بقينا نحن وعددٌ قليل من العائلات في البلدة، نرى أهوالًا تشبه القيامة، على مدار شهورٍ طويلة من القصف والدمار.

في نهاية المطاف، لجأنا إلى مدارس العودة الحكومية القريبة من منطقتنا؛ كنا ننام فيها ليلًا، ونعود في الصباح لتفقُّد بيوتنا بخوفٍ دائم من طائرات الاستطلاع التي كانت تلاحق كلَّ حركة. كثيرٌ من أبناء عائلتي سقطوا شهداء بتلك الطائرات، رحمهم الله.

عشتُ مواقفَ كثيرةً لا تُنسى، بعضها يوقظني حتى اليوم من نومي بقشعريرةٍ وحزنٍ عميق؛ رأيتُ الدم، ونقلتُ الشهداء والمصابين، وواجهتُ الحصار والطائرات المسيّرة التي كانت تطارد الناس في الشوارع. لكنّ أكثر ما بقي محفورًا في ذاكرتي، ما حدث ليلة الثلاثين من يوليو لعام 2024م، تلك الليلة التي لن أنساها ما حييت.

كانت الساعةُ تشير إلى الثانية عشرة وسبعٍ وعشرين دقيقة بعد منتصف الليل؛ البلدةُ شبهُ خالية من سكانها، والليلُ موحشٌ بشكلٍ لا يوصف. فجأةً، بدأ القصفُ المدفعي والأحزمةُ النارية على المنطقة بأكملها؛ ساعةٌ كاملة من الانفجارات المتواصلة التي هزَّت الأرض والقلوب معًا.

في خضمِّ هذا الجحيم، سقطت قذيفةٌ على فناء منزلٍ قريب يبعد عني نحو 300 متر فقط، حيث كان ثلاثةُ شبانٍ يجلسون هناك. سمعتُ صراخهم؛ طلبُ النجدة يخترق الليل، ورنَّ هاتفي، كان صديقي يصرخ باكيًا:

"عبادة! يا عبادة، إلحقنا... في إصابات عنا، بسرعة!".

كانت الدباباتُ قد بدأت تتوغَّل في البلدة، والطائراتُ تحوم على ارتفاع منخفض تستهدف كلّ مَن يتحرَّك. اتصلتُ فورًا بالصحفي مثنّى النجار وبلَّغته بما يحدث، فأخبرني أنه سيحاول إرسال إسعاف، لكنّ

الطواقم رفضت التقدُّم واقتربت فقط لمسافة ثلاثة كيلومترات خوفًا من الاستهداف المباشر.

كنتُ في حيرة بين الحياة والموت، وبين الخوف والواجب؛ توكَّلتُ على الله، وحصَّنتُ نفسي بآياتٍ من القرآن، ثم خرجتُ راكضًا في الظلام نحو مصدر الصراخ. ركضتُ أكثر من ثلاثمئة متر تحت نيران القصف، لا أرى شيئًا سوى وهج الانفجارات. وبين الركض والدمار، لمحتُ ابن عمِّي - الذي استُشهد لاحقًا - تردَّد لحظةً ثم قرَّر أن يرافقني، فهرولنا معًا نحو المجهول.

الطائراتُ كانت تحوم فوقنا وأصواتها تملأ السماء، وأيُّ حركة قد تعني الموت المحتَّم؛ ومع ذلك وصلنا إلى البيت المستهدف. وجدنا المصابين ينزفون، فحاولنا نقلهم بسرعة؛ أضأنا هواتفنا ورفعنا قطعة قماشٍ بيضاء - كانت في الحقيقة "لباسًا داخليًّا" - كي نُظهر أننا مدنيون. لم يكن في البلدة أحدٌ سوانا، بدت كمدينة أشباح.

وصلنا بصعوبة إلى المدارس التي كنا نلجأ إليها، وهناك ساعدنا بعضُ طلبة التمريض المتواجدين في المبنى على إيقاف النزيف بما توفَّر لديهم من أقمشة وأدوات بسيطة؛ لم يكن هناك دواءٌ ولا معداتٌ طبية، فقط إرادةُ الحياة.

تلك الليلة لم أنم، جسدي أُنهِك لكنّ قلبي ظلَّ مستيقظًا. طوال الوقت كنتُ على تواصل مع الصحفي مثنّى النجار، الذي تابع الموقف دقيقةً بدقيقة، وكان سندًا معنويًّا لي، وصفني بـ "البطل"، وشجَّعني في أكثر لحظات حياتي ظلمةً وخوفًا.

مرَّت هذه الحادثة، لكنها لم تكن سوى واحدة من عشرات القصص التي عشتها خلال عامين من القهر والدمار، تجرَّعنا فيهما مرارة الموت والخوف، حتى جاءت اللحظةُ التي اضطررنا فيها إلى مغادرة المنطقة بعد حصارها الكامل بالدبابات.

رحلتُ إلى غرب خان يونس، لكنني بقيتُ صوتَ المكان ورسالةَ الناس؛ أنقلُ شهاداتهم وآلامهم أولًا بأول إلى الصحفي مثنّى النجار، ليعرف العالمُ ما الذي كان الاحتلالُ يحاول إخفاءه.

وجع بلا صوت

في نهاية كلِّ حكاية، يبقى هناك وجعٌ لا يُروى، وملامحُ تغيَّرت بصمتٍ لا يسمعه أحد.

تتراكم الأيام وتحمل معها بقايا منّا؛ كأننا نُسلَب شيئًا من أرواحنا مع كلِّ فصلٍ ينتهي.

هكذا تبدو الحكايات الإنسانية في جوهرها: محاولات متكرّرة للبقاء، على الرغم من كلِّ ما يُنهكنا.

يا وجعنا، ويا داخلنا الذي تغيَّر، ويا حياتنا التي غابت، ويا واقعنا المؤسف!

كم خسرنا ونحن نحاول أن نبقى بخير، وكم تظاهرنا بالقوة حتى صرنا لا نعرف كيف نكون ضعفاء. تغيَّرت ملامح الأيام، وبهتت الألوان في أعيننا، وصارت الضحكات باهتةً لا تشبهنا.

نحن الذين كنا نركض نحو الغد بشغف، أصبحنا ننتظر المساء بقلق؛ نُحصي خسائرنا ونخبِّئ خوفنا في تفاصيل صغيرة لا يراها أحد.

يا لثِقَل ما نحمله في صدورنا من ذكريات، ويا لفراغ الأيام التي تمرُّ من دون أن تترك أثرًا من فرح!

صرنا نُتقن الصمت أكثر من الكلام، ونجد في العزلة وطنًا مؤقتًا نلوذ به من ضجيج الخيبة. تغيَّر كل شيء؛ حتى نظرتنا لأنفسنا، وحتى معنى النجاة.

صرنا نعيش بين حنينٍ لما كان، وخوفٍ ممّا سيكون، وبينهما نضيعُ نحن. نحاول أن نحافظ على ما تبقَّى من ملامحنا القديمة؛ تلك التي لم يمسَّها الانكسار بعد.

وعلى الرغم من كل هذا الألم، لا يزال فينا بصيصُ حياةٍ صغير، يشبه شمعةً في ليلٍ طويل، يذكِّرنا أن الروح مهما انكسرت تستطيع أن تضيء مرَّة أخرى، ولو بخفوت.

وهكذا، بين وجعٍ لا يُقال، وحياةٍ تُقاوِم بصمت، نمضي... نحمل وجعنا في صدورٍ تتعب ولا تنكسر.

الفصل الحادي عشر

ذكريات مصورة

هذه بعض الصور الشخصية التي عشتُ فيها أجمل اللحظات. في كلِّ صورةٍ حكاية، وفي كلِّ زاوية من ذاكرتي وجهٌ أعرفه ووجعٌ لا أنساه. هناك صورٌ جمعتني بأصدقائي؛ لحظاتٌ خفيفة كأنها من زمنٍ لا يعرف الحرب، ضحكاتٌ صافية تشبه نسمة أواخر الربيع.

وهناك صورٌ أخرى توثِّق عملي، الكاميرا فيها شاهدةٌ على كلِّ ما رأيته؛ على التعب والخطر، وعلى تلك المسافة الصغيرة بين الحياة والموت. ثم تأتي صور الحرب: الوجع، الدمار، الركام الذي يبتلع الشوارع، والبيوت التي كانت يومًا مليئةً بالضوء والضحك. صورٌ لا تُرى فقط بالعين فحسب، بل تُحسُّ بالقلب.

وفي زوايا الألبوم وجوه الأحبّة الذين رحلوا؛ أقارب وأصدقاء كانوا هنا، تركوا فراغًا لا يُملأ، وذكرياتٍ نعيش عليها كلما ضاقت بنا الحياة. هي مجموعة من الصور، لكنها في الحقيقة حياةٌ كاملة، مختصرةٌ بين ابتسامةٍ ودمعة، وبين زمنٍ مضى وزمنٍ ما زال ينتظر أن يعود إليه الأمل.

ملحق الصور

في هذه الصور خالي الشهيد أشرف النجار،
وأبناء العم: مازن ونجله مالك، وعاصم، ورمضان، ووائل، ومازن،
وحازم، وروحي. ومعهم أحبابي خالد وأسامة أبو دقّة
الذين استشهدوا خلال الحرب.
كما تضمُّ الصور زملائي في إذاعة القدس:
فيصل، وخميس، وأبو سخيل،
والمصوّر سامر أبو دقّة

الدمار والنزوح وسوء التغذية ووجع الأطفال

الشهيد سالم قديح ابن خالة أمّي كان يواسي شقيقته التي فقدت ثلاثة من أبنائها دفعة واحدة وبعد التقاط الصورة بأشهر استشهد سالم رحمه الله

صورة تلخِّص مأساة النزوح ودفن الشهداء

صور ترصدُ جانبًا من ميادين العمل، وصورةٌ من فناء منزلي؛
كانت آخرَ الصور قبل أن يتمَّ تدمير المنزل

صور ترصدُ جانبًا من زوايا مكان عملي؛ في الإذاعة وفي الميدان

هذه الصور لها وقعٌ خاصٌّ على قلبي؛ فهي ترصدُ عينَ الجمال، ولحظات تكريمي من بعض المؤسسات. وفيها يظهر الشهيد الصديق محمود شراب، وحسن أصليح، والطفلة الجريحة تالا أبو دقّة؛ تلك اليتيمة التي ظلَّت وحيدةً بعد ارتقاء عائلتها. وأيضًا، صورةٌ مع فاكهة غزَّة الصديق محمود زعيتر

هذه الصور لها وقعٌ خاصٌّ على قلبي؛ كونها ترصدُ عينَ الجمال الذي كنتُ أوثقُه في عملي، ولحظات تكريمي من قِبل بعض المؤسسات

في هذه الصور أحبُّ الناس إلى قلبي:
ابني ضياء الحق، وجدُّه محمد أبو الشريف، وزميلي الشهيد حسن أصليح.
كما تضمُّ صورًا خاصةً لي أثناء التغطية، وبعضًا من أقاربي وأبنائي

صور توثِّق التنديد باستهداف الصحفيين

شارع حيِّ الرمال في غزَّة؛ من أرقى الشوارع قبل الحرب، وهذا حالُه أثنائها

الجريح سليمان قديح ابن عمتي أثناء وقوفه عند منزله المقصوف

الشهيد الصحفي حسن أصليح، والشهيد الصحفي سامر أبو دقّة، والصحفي محمد أبو دقّة، وإبراهيم محارب، وعبد الرحمن العبادلة، ومحمد منصور. كلُّ واحدٍ منهم له حكايةٌ وقصةٌ في حياتي

جانبٌ من لقاءات وفعاليات، ولقاءٌ ببعض الزملاء؛ منهم مَن استشهدَ، ومنهم مَن بقيَ في قيد الحياة

الشهداء الأصدقاء: ضياء أبو رجيلة، وعماد قديح، وأحمد قديح؛ من بلدة خزاعة

الشهيد الصحفي العزيز أحمد منصور؛ شهيدٌ ارتقى محترقًا بفعل صاروخ استهدفَ خيمةَ عمله في مستشفى ناصر الطبي

حالة القهر في عيون النساء والرجال والأطفال؛ وهم يودِّعون أحبابَهم

صور لمسجد عباد الرحمن في حيِّنا بخزاعة قبل الحرب؛
مئذنةٌ كانت تعانقُ السماء بالسكينة، وأخرى ترصدُ حياةَ الخيام ومرارةَ النزوح،
ووجعَ دفن الشهداء خلال الحرب

مشاهد من الدمار والخراب، وجثامينُ تحت الرُّكام؛
صرخاتٌ صامتة تختصرُ حكايةَ الفقدِ والوجع

الشهيدان الزميلان العزيزان: أنس الشريف، ومحمد قريقع، ورفاقُهم

الشهيد رامي النجار؛ ابنُ العائلة البارّ، وشهيدُ لقمة العيش

الزميلان الشهيدان: إسماعيل بدح وسليمان حجاج

لقطاتٌ من الأجواء التي وثقتُها لجمال الغروب وركوب الخيل

صور تجمعني بالشهيد الصحفي حسن أصليح،
وجانبٌ من لقاءات المواطنين وتفاصيل الحياة العامة التي كنّا نوثقُها معًا

صور من التغطيات الصحفية الميدانية برفقة الزميل الشهيد حسن أصليح، ولحظاتٌ من زيارة قمتُ بها لزميل صحفي آخر

صور تلخِّص جولاتي التي وثقتُها لجمال قرية خزاعة وعبسان الكبيرة قبل الحرب؛ حيث باتت اليومَ مدمَّرة